التقدمي

نشرة شهرية يصدرها المنبر التقدمي - مملكة البحرين SDPA 499 العدد 155 السنة الثامنة عشر - أكتوبر 2020

المسكوت عنه حول العمالة غير المنظمة

تضييق جديد لدور البرلمان الرقابي

10

السبيل لإخراج صناديق التقاعد من التعثر

12

كيف عَلّمَ جيفارا كوبا مواجهة «كورونا»؟

27-26

موقفنا

الصهاينة غير مرحب بهم

في محله تماماً ما قاله البيان الصادر عن عدد كبير من الجمعيات السياسية ومؤسسات المجتمع المدني في البحرين من أن إعلان إتفاق بين مملكة البحرين وإسرائيل، وما ينجم عنه من آثار لن تحظى بأي غطاء شعبي انسجاماً مع ما نشأت عليه أجيال من البحرينيين في التمسك بقضية فلسطين، لأن شعبنا سيظل نصيراً لفلسطين وشعبها حتى ينال كامل حقوقه التي تضمنها له المواقف والقرارات الدولية التي أجمعت عليها دول العالم والمنظمات الدولية، وفي المقدمة منها حقه في العودة إلى أرضه المغتصبة، وإقامة دولته الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس.

هذا البيان عكس جانباً مهماً من حال الرفض الشعبي الواسع في البحرين لكافة صور التطبيع مع العدو الصهيوني، ووقعت عليه سبع عشرة منظمة ومؤسسة، بينها منبرنا التقدمي وعدد من الجمعيات السياسية الأخرى، فضلاً عن طيف واسع من مؤسسات المجتمع المدني، نقابية ونسائية وشبابية وحقوقية، أكدّت على تمسكها بثوابت الشعب البحريني من القضية الفلسطينية العادلة.

لا أحد من أبناء شعبنا الواعي المتمسك بثوابته الوطنية والقومية يصدّق الأقوال بأن هذا التطبيع سيجلب الاستقرار والرخاء في المنطقة، فاتفاقيات التطبيع العربية السابقة مع إسرائيل، تؤكد أن العرب لم يجنوا أي ثمار أو فائدة منها، بل أن أوضاعها أصبحت أسوأ اقتصادياً، فيما نال العدو الغاصب ثمار ذلك بالاعتراف به، دون أن يقدّم أدنى تنازل، فحتى الأراضي التي انسحب من بعضها، هي أراض عربية محتلة لا تعاد بمقايضات.

أما الحديث عن السلام والإستقرار في المنطقة، فالتجربة تؤكد للجميع بأن أي تطبيع أو أي شكل من التسوية لا يضمن حقوق الفلسطينين القومية في أرضهم وإقامة دولتهم الوطنية عليها، لن يؤدي إلى أي استقرار، بل قد يدفع المنطقة نحو استقطابات ونزاعات هي في غنى عنها، ستكون كلفتها باهظة على شعوبنا وبلداننا.

تراث شعبنا الوطني وتعلقه بقيم الحق والعدالة والسلام العادل، وإنحيازه العميق لكافة قضايا أمتنا العربية، وفي مقدمتها قضية فلسطين، سيكون مصداً بوجه الصهاينة، الذين عليهم أن يدركوا ذلك وأن يعرفوا أن هذه هي البحرين وشعبها، وأنه لن يكون مرحباً بهم من الشعب ولا ببضائعم بأي صورة من الصور. وشعبنا متمسك بما نصّت عليه التشريعات المعمول بها، وبينها مواد القانون رقم (5) لسنة 1963 والتي تجرّم التطبيع مع العدو الصهيوني، كما أن نصوص الدستور وروحه تذهب إلى الوجهة ذاتها، خاصة ما أكدته المادة الأولى في هذا الدستور فقرة "د" بأن الشعب مصدر السلطات.

التقدمي

في بيان لمكتبه السياسي:

«التقدمي» تجارب التطبيع السابقة لم تخدم القضية الفلسطينية

جدّد المنبر التقدمي موقفه الرافض لكل أشكال التطبيع مع الكيان الصهيوني، جاء ذلك في اجتماع استثنائي للمكتب السياسي عُقد السبت الموافق 12 أيلول/ سبتمبر 2020 وناقش فيه إعلان التطبيع مع الكيان الصهيوني برعاية الإمبريالية الأمريكية.

ورأى المنبر التقدمي بأن هذه الخطوة تشكل تراجعاً عن مواقف البحرين السابقة الداعمة للقضية الفلسطينية، وهو الأمر الذي لا يتوافق مع الموقف الشعبي الداعم والمناصر للشعب الفلسطيني وقضيته العادلة وحقه بإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

ورأى المكتب السياسي أن التجارب السابقة للتطبيع لم تثمر عن أي نتائج تخدم القضية الفلسطينية ولم تدفع بها خطوة إلى الأمام، وأعرب التقدمي عن اعتزازه بالموقف الشعبي الرافض للتطبيع، مؤكداً وقوفه مع نضال الشعب الفلسطيني.

١٧ جمعية سياسية ومؤسسة أهلية:

موقف شعب البحرين ثابت من القضية الفلسطينية

وقعت سبع عشرة منظمة من سياسية وأهلية بياناً أكدّت فيه تمسكها بثوابت الشعب البحريني من القضية الفلسطينية العادلة وبنصوص الدستور البحريني الذي يجرّم التطبيع مع الكيان الصهيوني وبالإجماع العربي والإسلامي الرسمي والشعبي الرافض للتطبيع مع هذا الكيان المجرم. مؤكدة رفضها لكل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني، ومشددة على حقيقة دامغة بأن جميع أشكال التطبيع مع الكيان الصهيوني التي تمت من قبل بعض الدول لم تثمر سلاماً ولا أعادت حقوق الشعب الفلسطيني المغتصبة بل دفعت العدو الصهيوني إلى مزيد من ارتكاب الجرائم بحق فلسطين ومقدسات العرب والمسلمين وفي مقدمتها القدس الشريف.

ووقع البيان كل من: التجمع الوطني الديمقراطي الوحدوي ، المنبر التقدمي، التجمع القومي الديمقراطي ، التجمع الوطني الدستوري، الوسط العربي الإسلامي، الاتحاد العام لنقابات عمال البحرين، جمعية المحامين البحرينية ، جمعية الشبيبة البحرينية، جمعية أوال النسائية، الاتحاد النسائي البحريني، جمعية مدينة حمد النسائية، جمعية فتاة الريف، جمعية المرأة البحرينية، جمعية الشباب الديمقراطي ، الجمعية البحرينية لمقاومة التطبيع مع العدو الصهيوني، جمعية سترة للارتقاء بالمرأة، وجمعية نهضة فتاة البحرين.

وقال البيان إن خبر الإعلان عن التوصل إلى ما عرف بـ "معاهدة سلام" بين البحرين والعدو الصهيوني برعاية أمريكية أحدث صدمة هائلة واستياءً ورفضاً شعبياً واسعاً في صفوف الشعب البحريني وجمعياته السياسية ومؤسسات مجتمعه المدني، وكافة الفعاليات والشخصيات الوطنية، كون هذه الخطوة غير المتوقعة لا تتفق ومواقف البحرين التاريخية والناصعة تجاه القضية الفلسطينية وتخالف الإجماع العربي والإسلامي الرسمي والشعبي والإرادة الشعبية البحرينية التي تضع في مقدمة أولوياتها

نصرة القضية الوطنية العادلة للشعب الفلسطيني الشقيق، ودعم نضاله من أجل نيل حقوقه في العودة إلى أرضه وإقامة دولته الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وتؤكد هذه الجمعيات والمؤسسات أن أي صورة من صور التطبيع مع الكيان الصهيوني الغاصب تعد خروجاً على الاجماع الشعبي ومساساً بالثوابت الوطنية.

وأكدّ البيان على أن إبرام الاتفاق المذكور مع دولة العدو الصهيوني، ليس فقط ألا يمثل إرادة الشعب البحريني، بل إنه أيضاً مخالف لدستور المملكة الذي ينص في مادته الأولى فقرة "د" بأن الشعب مصدر السلطات، كما أن الاتفاق المعلن عنه مخالف لمواد القانون رقم (5) لسنة 1963 الذي يجرّم التطبيع مع العدو الصهيوني. وشدد البيان على ثبات موقف الجمعيات الموقعة الرافض للتطبيع مع العدو المحتل.

وأوضح البيان أن كل ما سيترتب على التطبيع من آثار لن تحظى بأي غطاء شعبي انسجاماً مع ما نشأت عليه أجيال من البحرينيين في التمسك بقضية فلسطين. وأشار البيان إلى أن شعب البحرين سيظل نصيراً لفلسطين وشعبها حتى ينال كامل حقوقه التي تضمنها له المواقف والقرارات الدولية التي أجمعت عليها دول العالم والمنظمات الدولية، وفي المقدمة منها تلك التي تؤكد بأن القضية الفلسطينية هي قضية وجود، وجود الشعب الفلسطيني متمتعاً ببديهيات حقوق الإنسان على أرضه، وأولها حق العودة إلى أرضه.

«التقدمي» يحيي الذكرى الـ 34 لاستشهاد المناضل هاشم العلوي

أحيا المنبر التقدمي ذكرى استشهاد الرفيق الدكتور هاشم العلوي الذي صادف 18 أيلول/ سبتمبر، في بيانٍ طالب فيه بالكف عن انتهاك حقوق الإنسان وفي طليعتها حرية الرأي والتعبير وحرية المعتقد والانتماء وصون الكرامة الإنسانية ووضع حد لسوء المعاملة داخل السجون والمعتقلات وأماكن التوقيف، حيث نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة (5): لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الحاطة بالكرامة.

وأشار البيان إلى أن الرفيق العلوي انخرط منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي في صفوف جبهة التحرير الوطني، وهو في ريعان شبابه وغادر للدراسة في جامعة بغداد عام 1974، وتمّ ابتعاثه للدراسة في الاتحاد السوفييتي عام 1975 حتى تخرج طبيباً من جامعة الصداقة بين الشعوب في موسكو، وتدرج في المواقع الحزبية في الجبهة، حتى شغل مراكز متقدمة فيها.

وشدّد البيان على أن الشهيد العلوي كان مخلصاً ومتفانياً في نشاطه الحزبي صلباً عنيداً معتزاً بالمبادئ التي كانت تحكم سلوكه، لذا عرف عنه الشهامة والصدق والثقة التي دائماً ما كانت تنطق بها قسماته، وكان الجميع من حوله على يقين أن الرفيق هاشم إذا ما خير بين الموت شهيداً أو الاقرار بما يمليه عليه المحقق فإنه بالتأكيد سيذهب للخيار الأول وهو ما حدث.

زيارة إلى قبر الشهيد

وبالمناسبة قام عدد من الرفاق، بينهم أرملة الشهيد الرفيقة إيمان شويطر، في يوم ذكرى استشهاده بزيارة قبره في مقبرة الحورة بالمنامة ووضعت أكاليل من الورود والمشموم عليه، كما قام عدد من المواطنين بزيارة مشابهة إلى القبر في لمسة وفاء لذكراه وتضحياته.

فضفضة

عاشق فلسطين

عيسى الدرازي

وفاءً لذكرى سلمان زيمان، أنتج المنبر التقدمي فيلماً تسجيلياً يحكي بعضاً من محطات مسيرة الرجل الوطنية والفنية، الفيلم الذي أبدع في كتابته وإخراجه أحمد الفردان، كان بمثابة وداع يليق بمن كتم الوطن في قلبه وخلّده موسيقياً وكلمات وغناء. وليس الوطن الأصغر من كان يحمله زيمان بين ثناياه بل صوب وجدانه نحو فلسطين، حبه الذي قرنه بالوطن والأرض والأمل.

يقول سفير دولة فلسطين في المنامة خالد العارف، في أحد مقاطع الفيلم، إن عمل زيمان وفنه وعطاءه لفلسطين هو ما جعله يستحق لقب عاشق فلسطين. فيما استبعد الكاتب الدكتور حسن مدن أن يكون هناك فنان غير فلسطيني قدّم للقضية الفلسطينية بحجم ما قدّمه زيمان.

غنى سلمان زيمان فلسطين، كما رددت معه فرقة «أجراس» أشعار درويش والقاسم وغيرهما تراتيل العودة وحلم الطفولة بفجر جديد. تشربت أسماعي، كما أقراني، منذ الصبا بهذه الكلمات والأغاني التي زرعت في وجداننا اللبنات الأولى وأثارت الشرارة التي توقدت لاحقاً شعلةً تضيء وحشة الطريق لفلسطين .

منذ تلك اللحظة الفارقة، استشهاد محمد الدرة، انضمّ أبناء جيلي إلى من سبقونا من أجيال تحمل فوق عاتقها حمل القضية الفلسطينية، وتبيان ما تعنيه من أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفكرية بالأساس، وسرنا كما هم في درب لا رجعة فيه كان ولا زال أفقه القدس. ولكن الحرب لم تكن متكافئة أبداً، والصراع لم يكن يوماً نزيهاً. حملات دعائية منظمة مدفوعة الثمن ومدبرة بليل، أخذت تتسلل إلى أبناء اليوم وجيل الألفية زارعة ببطء وبحذر أفكارها الخبيثة ومفاهيمها المقلوبة ومفرداتها المغلفة، حتى باتت المسلمات والبديهيات على طاولة النقاش والتحاور.

توارد لذهني تساؤل بعد مشاهدة الفلم التأبيني لسلمان زيمان، ماذا كان سيقول عاشق فلسطين حينما يرى اليوم هذا التهافت على تغيير اتجاه البوصلة نحو اتجاه غير فلسطين، ماذا كان سيقول اليوم بعدما صرنا نسمي التطبيع سلاماً؟

بمناسبة اليوم العالمي للديمقراطية

«التقدمي» يدعو إلى تمكين المواطنين من المشاركة في صنع القرار

جدّد المنبر التقدمي مطالبته بكل ما يُرسي النهج الديمقراطي ويعزز أسسها في البلاد وتحقيق التنمية الشاملة والمستدامة، ويواكب تطلعات المواطنين ويحقق مستقبلاً أفضل للأجيال القادمة. مشدداً على أهمية الانفتاح على طموح المواطنين وإخراج طاقاتهم ومشاركتهم في آمالهم وتطلعاتهم من خلال تمكينهم من صنع القرار ورسم السياسة التي يرتضونها بالسبل والآليات التي قررتها المواثيق والمعاهدات الدولية.

وقال «التقدمي» في بيان له بمناسبة اليوم العالمي للديمقراطية إن هذه المناسبة تأتي هذا العام في وقت يشهد فيه العالم تغييرات وتطورات متسارعة وكاسحة مست بشكل أو بآخر أوضاع الناس وحقوقهم، الأمر الذي رفع منسوب القلق على مسار العمل الديمقراطي والمساس بحقوق المواطن وحرياته السياسية، لافتاً إلى آثار جائحة كورونا على بلادنا من مختلف الجوانب وضروة الاستعداد لمواجهتها.

ويلاحظ من شعار هذا العام ربط الديمقراطية في ظل هذه الجائحة، مما يؤكد عمق ارتباط الديمقراطية بكل مجريات حياة الناس في مختلف دول العالم، وأن الديمقراطية في جوهرها تقوم على المشاركة، والتفاعل الإيجابي وحقوق الإنسان وكل ما يشكل ركائز أساسية لحقوق الإنسان والحكم الرشيد.

وكانت الأمم المتحدة قد أقرت 15 أيلول/ سبتمبر من كل عام يوماً عالمياً للديمقراطية، وجاء شعار الاحتفال هذا العام تحت عنوان «تسليط الضوء على الديمقراطية في إطار كوفيد 19» وذلك تأكيداً لطبيعة وحجم تداعيات جائحة كوفيد 19 وما أفرزته من تحديات غير مسبوقة على مختلف الأصعدة، اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وقانونياً.

من إخراج الفنان أحمد الفردان

التقدمي يؤبن زيمان بفلم يحكي إبداعه وهمه الوطني

عرضت قناة المنبر التقدمي على "يوتيوب" الفيلم الوثائقي "أبو الفعايل"، عن حياة الفنان المناضل الراحل سلمان زيمان، من إخراج الفنان أحمد الفردان، والذي تضمّن شهادات ومشاركات عن محطات تجربة زيمان الحياتية والفنية منذ ولادته في منتصف الخمسينات بالمحرق، والتحاقه بالدراسة الجامعية في بغداد، وانخراطه في النضال العمالي السري في البحرين بعد منعه من السفر، ما حال دون إكماله لدراسته الهندسة، وحياته في الكويت بعد اضطراره لمغادرة البحرين بعد خروجه من المعتقل، في الحملات القمعية ضد مناضلي جبهة التحرير الوطني في منتصف الثمانينات.

كما استعرض الفيلم دور فرقة "أجراس" التي كان للفقيد دورأساسي في تأسيسها، وما أحدثته الفرقة من أثر كبير في الحياة الفنية والعمل الوطني في البحرين، وما أولته من اهتمام للقضية الفلسطينية والنضال العادل للشعب الفلسطيني من أجل حقوقه، من خلال اختيارها لنصوص كبار الشعراء الفلسطينيين والعرب لتلحينها وغناءها.

وما زال الفيلم يحظى بنسبة مشاهدة عالية داخل وخارج البحرين.

قراءة في واقع الحركة النقابية البحرينية – ٥

جواد المرخي

العمل في صفوف الحركة النقابية جوهر النضال العمالي اليومي، تحت القيادات والكوادر العمالية التي يمتلك أفرادها الوعي الحقيقي والحس الوطني، وثقافة الدفاع عن مصالح سائر الشغيلة بعيداً عن الاصطفاف الفئوي والطائفي.

هذا ما عرفناه من خلال تجاربنا وقراءتنا لتاريخ الحركة العمالية والنقابية العربية والعالمية، وكيف توكل المهام للقيادات العمالية كي تضع الأهداف المرحلية والاستراتيجية لنضال الكادحين من أجل حياة كريمة تسودها أسس العدالة الاجتماعية والتحرير من صنوف القهر والاستعباد.

كما أن جماهير الكادحين تلتفت عادة حول القيادات العمالية والنقابية الصادقة، التي يمكن أن تتعرض في غمرة نضالها لأنواع التعسف من قبل المعارضين للأنشطة العمالية والنقابية حسب مواقفهم الاجتماعية والسياسية، ممن لهم مصالح في تحجيم دور الانشطة العمالية.

وهنا يمكن أن نشير إلى البيان التضامني الذي صدر من قبل القيادات النقابية في التيار المستقل بتاريخ 2020/7/26 مع النقابي السيد مجيد الحليبي رئيس نقابة شركة جرامكو والذي تعرض للمضايقات وتمّ منعه من دخول الشركة، فقد حظي هذا البيان بدعم و تأييد شرائح واسعة في وسط المجتمع المدني والسياسي مما ساهم في حل المشكلة.

نحن كنشطاء في الحراك النقابي والعمالي الوطني عبر المنبر التقدمي نطالب دوما بحماية النشطاء النقابيين ليلعبوا الأدوار المشرفة في الدفاع عن مصالح العمال، وأن لا تطبق الشركات أجندة القوى المعادية للتحركات المشرفة للقيادات النقابية المستقلة، ونحن ندرك جيداً ان من استحوذ على القرار النقابي في البحرين جراء أوضاع مختلفة وخصوصا بعد احداث 2011 قد تقاسموا المنافع والمناصب، وهم يسعون اليوم لعرقلة أنشطة النقابات المستقلة التي تطالب بالتغيير والتطوير وجعل النقابات في البحرين فاعلة بعيدا عن الجمود والمصالح الشخصية.

ان خط التغيير والتجديد والاصلاح حتما سوف يصطدم بعقبات مختلفة، كالمفتعلة للحد من شاط القيادات النقابية الرافضة لما يجري في وسط الاتحادات النقابية في البحرين، مما يتطلب العمل الواعي، والإيمان بأهمية العمل الجماعي في الساحة النقابية.

من اجل المقارنة المهمة ولمعرفة الدروس، وأن لا تكون الحركة النقابية تحت سيطرة قوى فئوية وطائفية تعتقد أن هي من أسست وأدارت الحركة العمالية في البحرين، قررت أن استعرض في الحلقات القادمة محطات مضيئة من نضال الطبقة العاملة في بلادنا،على مدار عقود مختلفة خصوصا النضال العمالي في ظل هيمنة الاستعمار البريطاني على البحرين، وما بعد الاستقلال الوطني وسن دستور عام 1973 وما تلاه من أحداث في الهجمة الشرسة على الديمقراطية وسن قانون أمن الدولة، وتعرض الحركة العمالية والنقابية والوطنية للقمع مرورا باعتقالات 1986، لنُعرّف بدور القوى التقدمية في تأسيس الحركة العمالية والنقابية وتطويرها.

في ندوة نقاشية نظمها «ائتلاف الخليج ضد التطبيع»

مثقفون: توجّه عام لزعزعة إيمان الشباب بالقضية الفلسطينية وإشاعة روح اللاجدوى

كتب عيسى الدرازي:

قالت الشاعرة الكويتية سعدية مفرح إن «فلسطين تحولت من اسم وطن إلى رمز لكل الأوطان المحتلة وكل الحقوق المسلوبة»، مشيرة إلى إن هذه «القضية مغرية لأي شاعر ليتخذ منها مادة للكتابة».

كان ذلك في الندوة النقاشية التي نظمها ائتلاف الخليج ضد التطبيع بعنوان "فلسطين والثقافة الفن... من ينصر من؟"، والتي استضاف فيها إلى جانب مفرح، كل من السينمائي والشاعر العماني عبدالله حبيب، والدكتور حسن مدن من مملكة البحرين، وأدارها الكاتب والناشط العماني سعيد الهاشمي.

وأوضحت مفرح أن " الأجيال الجديدة اليوم لديها علامات استفاهم كثيرة حول ما يجري في الوضع الإقليمي الملتهب»، وتابعت «كانت الأجيال في السابق ليس لديها هذه الشكوك بالقضية وكان مجرد الحديث العرضي عن التطبيع يعتبر كفر وغير ذي وارد في أي سياق».

وأشارت إلى أن "الشاعر الكويتي الكبير فهد العسكر تحدث في العام 1936 بمناسبة قدوم بعثة من المدرسين الفلسطينيين، وأنشد قصيدة حيا فيها فلسطين وأهلها، وأشار إلى صبر أهل فلسطين عما كان يصيبهم من اعتداءات، حتى قبل احتلال فلسطين وقبل النكبة". مبنيه بأن "هناك موجه كبيرة من هجرة الفلسطينيين أتت إلى الكويت والخليج، وشاركوا في نهضة الخليج بالتعلم والعمل ومجالات الحياة الأخرى".

أرض الشهداء

إلى ذلك، قال مدن إن « قضية التضامن مع فلسطين ومعاداة الصهيونية اقترنت بمعاداة الاستعمار والنضال ضده، فالحركات الوطنية في البحرين والمنطقة عندما كانت تتحدث عن معاداة الاستعمار تقرنه دائماً بمعاداة الصهيونية».

وأوضح أن « الشاعر البحريني إبراهيم العريض والذي يعتبر قامة أدبية كبيرة وضع في العام 1951 ملحمة شعرية مكرسة للقضية الفلسطينية عنوانها «أرض الشهداء»، وقد أرسلها للمفتي الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، الذي أجابه بدوره في رسالة جوابية مبيناً فيها جماليات القصيدة وتعبيراتها ومقدماً شكره للعريض ولشعب البحرين". وأشار مدن إلى أن "ذلك يعتبر نموذجاً يضاف إلى النماذج الخليجية الثقافية التي تبين أن القضية الفلسطينية موجودة في وجدان شعوب هذه المنطقة وبطبيعة الحال فإن أول من يعبر عن هذا الوجدان هم الأدباء والمثقفون".

وأشار مدن إلى أن "شعراء البحرين تأثروا بأدب المقاومة الفلسطيني، وكذلك الفنون، خاصة الغناء والموسيقى في البحرين، التي جعلت القضية الفلسطينية قضية مركزية». لافتاً إلى أن" الفنان الراحل سلمان زيمان قدّم ورقة في 2009 حيث كانت القدس آنذاك عاصمة للثقافة العربية، في احدى الفعاليات الثقافية في البحرين بعنوان "فلسطين في أغانينا" ولم تكن مقتصرة على البحرين فقط بل كانت تتناول الاغنية العربية، وقد لاحظ حينها أن فرقة أجراس وحدها قدمت 23 أغنية كلها مكرسة لفلسطين، سواء كانت كلماتها لشعراء فلسطينيين أمثال سميح القاسم، محمود درويش، وتوفيق زياد، أو لشعراء عرب آخرين، فيما كتب سلمان نفسه بعض كلماتها.

مستطردًا: «وقد نالت هذه الأغاني شهرة واسعة على مستوى العالم العربي، وسلمان زيمان تحديداً عكف بمساعدة الأدباء والمثقفين على اختيار النصوص الشعرية الفلسطينية التي تغنيها فرقة أجراس». وينقل مدن أن " زيمان أشار حينها إلى فنانين آخرين مثل خالد الشيخ الذي غنى لفلسطين من كلمات شعراء فلسطينيين»، فضلاً عن بعض الفنانين من الشباب كحسن الحداد والموسيقي محمد الحداد».

صرف انظار الشباب عن فلسطين

وقال مدن إنه « لو رصدنا كمّ الأنشطة التي تشهدها البحرين المكرسة لفلسطين سواء من الجمعيات السياسية او جمعيات المجتمع المدني مثل الجمعية البحرينية لمقاومة التطبيع وغيرها من الجمعيات التي تضع من القضية الفلسطينية مرتكزا لنشاطها سنجد أنها تحتل مساحة كبيرة من مجمل النشاط الوطني والسياسي في البحرين. دائماً ظلت القضية الفلسطينية، بالنسبة لنا، قضية أساسية وجزءً من الخطاب الوطني والقومي وشكلاً من أشكال معاداة الاستعمار والتمييز، فلسطين هي عنوان لقضية أممية».

وبيّن أن "تكريس الثقافة الاستهلاكية وصرف انظار الشباب عن القضية الفلسطينية ليست ظاهرة خليجية فحسب، بل هناك توجه بشكل عام لإعداد الجيل الجديد بروح اللاجدوى، بمعنى زعزعة الإيمان بمرتكزات القضايا النبيلة، والقضية الفلسطينية في مقدمتها، فعدما يتم تسقيط هذا المرتكز او وضعه موضع الريبة، فالهدف هو الحاق الضرر بالخطاب القومي والوطني». مشيراً إلى أن "الجيل الجديد ينشأ في ظروف مختلفة عن الأجيال التي عايشت محطات تاريخية في القضية الفلسطينية".

وشدّد مدن على أن " مسؤوليتنا كمشتغلين في الثقافة وناشطين أن نلفت الأنظار لهذه القضية، ولكن القائمين على مناهج التعليم والمؤسسة التعليمية والتربوية في بلداننا هم المعنيون أكثر، وهو مسؤولية المجتمع المدني أن يضغط في هذا الاتجاه، لإبراز مكانة القضية الفلسطينية في مناهجنا الدراسية».

من جانبه، قال حبيب إن "من ينادي بالتطبيع ليس له قضية ينادي بها، لذلك فهو لا يقدّم فناً، ولا وجهة نظر وليس له قضية أساساً»، مشدداً على أنه «ليس هناك أي وجاهة في الجانب المطبع في استخدام الفنون".

وأكدّ حبيب على أن "الوجدان العربي ضد التطبيع. الفن لا يعني أي شيء بدون قضية»، لافتاً إلى أن «السينما الخليجية وغياب الجانب الفلسطيني هو موضوع شائك وكبير".

42% من أصحاب الأعمال يخططون لتسريح موظفيهم بسبب كورونا

كشف استبيان لمركز الدراسات والمبادرات في غرفة البحرين حول «الآثار الاقتصادية لجائحة كورونا» خلال سبتمبر الماضي، عدم استعداد 54٪ من أصحاب الأعمال لدفع التزاماتهم المالية بعد انتهاء فترة تأجيل الأقساط والفوائد، كما واجه 46٪ منهم تراكماً للديون لتغطية التزاماتهم المالية.

وبيّن الاستبيان أن نسبة 40٪ من منشآت رياض الأطفال ومعاهد التدريب و36٪ من المنشآت المتناهية الصغر، و37٪ من المنشآت التي يتراوح عمرها من 6 إلى 9 سنوات سيقومون بالتخلف عن سداد الديون المصرفية وتأخير المستحقات المالية قدر الإمكان خلال الفترة المقبلة.

وأظهر الاستبيان أن 38٪ من أصحاب الأعمال قاموا بتسريح موظفيهم منذ بداية الجائحة، و42٪ من أصحاب الأعمال يخططون لتسريح المزيد من الموظفين خلال الفترة المقبلة، ويتصدر قطاع السياحة والضيافة نسب تسريح الموظفين حيث قام 45٪ من أصحاب الأعمال في القطاع بتسريح أكثر من 20٪ من موظفيهم، بينما يتوقع 56٪ من المنشآت المتوسطة الحجم تسريح نفس النسبة في الفترة المقبلة، بالمقارنة مع 67٪ من ذات الفئة توقعوا ذلك في استطلاع يونيو 2020، وهو مؤشر لارتفاع التوقعات المتفائلة للمستقبل.

إذ أظهر الاستبيان تفاؤل التوقعات المستقبلية لأصحاب الأعمال بنسبة 73٪ بشأن تعافي الاقتصاد بشكل عام على مدى 2 –3 سنوات القادمة، فيما توقع 61٪ من أصحاب الأعمال أن تتعافى أعمالهم التجارية خلال 12 شهراً بعد انتهاء الأزمة في حال تجاوزهم للأزمة، ويخطط 52٪ من أصحاب الأعمال للاستثمار في أعمالهم التجارية خلال ال 24 شهراً القادمة، بينما يخطط 35٪ منهم لتغيير طريقة أداء عملهم التجاري خلال 3 –6 أشهر القادمة.

وكانت أبرز الإجراءات المالية المتبعة من قبل أصحاب الأعمال للاستدامة في ظل شح السيولة النقدية، والتخلف عن سداد الديون المصرفية، هو تأخير المستحقات المالية قدر الإمكان أو التفاوض على شروط الدفع مع الموردين وشروط الائتمان مع العملاء، والاقتراض الشخصي من البنوك أو التجار، وتأخير أو إلغاء الاستثمارات المخططة، وتخفيض نفقات التشغيل مثل الرواتب والتدريب والتسويق والمخزون.

الوطن – 19 /9/ 2020

حملات تفتيشية على «العمالة المرنة»

باشرت هيئة تنظيم سوق العمل تكثيف الحملات التفتيشية على أصحاب العمل الأجانب (العمالة المرنة) للتأكد من عدم قيامهم بالعمل في الأنشطة المهنية التي لا يجوز لصاحب العمل الأجنبي مزاولتها من دون الحصول على تصريح بذلك.

وقال الرئيس التنفيذي لهيئة تنظيم سوق العمل أسامة العبسي ان الهيئة وضعت خطة شاملة ومتكاملة لتكثيف الحملات التفتيشية على العمالة الحاملة تصريح العمل المرن، بهدف التأكد من عدم قيامها بأنشطة وأعمال لا يخولها التصريح القيام بها.

وأكد أن مفتشي الهيئة باشروا تكثيف الحملات التفتيشية على مختلف المناطق والأسواق، لمتابعة الأنشطة التي تقوم بها العمالة المرنة والتأكد من عدم مخالفتها للقانون والإجراءات، موضحًا أن التصريح المرن لا يخول حامله القيام بأي من الأعمال غير القانونية والتي تخالف الأنظمة والقوانين المطبقة في مملكة البحرين، ومن بينها – على سبيل المثال لا الحصر – العمل في القطاع التعليمي أو الهندسي، أو الطبي أو سيارات الأجرة وغيرها، من دون الحصول على تصريح من جهة الاختصاص، كما أن القانون يحظر على حامله القيام بأي أعمال تحظرها أي قوانين أخرى سارية في المملكة القانون كالباعة الجائلين وغيرها، مشيرًا إلى أن من يتم ضبطه مخالفًا يتم اتخاذ الإجراءات القانونية المناسبة والتي قد تصل إلى الترحيل.

ومما تجدر الإشارة إليه فقد بلغ إجمالي عدد العمالة المرنة التي تم إلغاء تصاريحها أو ترحيلها منذ تدشين تصريح العمل المرن أي خلال ثلاث سنوات، ما يقارب 1170 عاملا مرنًا بعد أن أخلوا باشتراطات التصريح.

أخبار الخليج– 2020/9/22

شركات صرافة تسرح عددا من البحرينيين

اشتكى عدد من الموظفين البحرينيين من قيام إحدى شركات الصرافة الخاصة بتسريحهم من عملهم، مع عدم تسديد مستحقاتهم منذ 4 أشهر على الرغم من أن الدولة أعلنت دعمها لرواتب البحرينيين بنسبة 50٪ حتى شهر سبتمبر.

وقالوا إننا نناشد الجهات المعنية النظر في أوضاعنا لأنه لم يتم إشعارنا بالفصل من العمل إلا بعد انتهاء فترة الدعم الحكومي للرواتب شهر يونيو، بعدها لم نتسلم أي حق من حقوق الفصل التعسفي وكنا نظن أن الشركة ستكون ملتزمة بسداد كل مستحقاتنا سواء من راتب نهاية الخدمة أو إجازاتنا السنوية، ولكن على الرغم من مضي عدة أشهر ومحاولاتنا المستمرة في التواصل معهم فإنه ما زال الأمر ساكنا مكانه. وأضافوا أن الشركة لم تقم بسداد مستحقاتنا وتبرر ذلك بأن جميع الأمور موكلة إلى شركة التحصيل، ومن ناحية أخرى تتعذر بأنه لا يوجد ما يكفي لسداد حقوق الموظفين البحرينيين وتقوم بإعطاء الحقوق كاملة لمن يستقيل من الأجانب فقط، مع العلم أن أغلبية الموظفين لديهم التزامات بنكية من قروض وغيرها، والبعض حاصل على شهادة البكالوريوس ويتسلمون اقل من شهاداتهم للحصول على الخبرة اللازمة.

وطالبوا وزارة العمل بالتحرك الجدي لإلزام الشركة بصرف المستحقات والتدخل لصون وحفظ حقوق المواطن البحريني وتوفير فرص عمل تتناسب مع مؤهلات مجموعة من الموظفين المسرحين.

اخبار الخليج - 25/ 8/ 2020

كاريكاتير
خالد الهاشمي

نقلاً عن حساب
الفنان على
«انستجرام»

«الصغيرة والمتوسطة» كانت الأكثر استقراراً في مواجهة الجائحة

قال وزير العمل الأسبق عبدالنبي الشعلة: «إن أغلب الشركات التي في البحرين تعتبر من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة كما هو الحال في معظم دول العالم، فإذا نتحدث عن حجم السوق والظروف الاقتصادية ، فأكثر أعضاء غرفة تجارة وصناعة البحرين هم من أصحاب المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، حيث تعتبر اقتصاديات مملكة البحرين واعدة وزاخرة بالتجارب، كما يمكن وصف مملكة البحرين بأنها في مقدمة الدول التي حققت نجاحا في نمو وتطور المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وتسعى إلى ضمان حمايتها ورعايتها، وعليه فنحن لدينا رصيد جيد من العمل في هذا المجال نفخر ونعتز به».

وأوضح الشعلة الذي يشغل رئيس اللجنة التأسيسية للاتحاد العالمي لمنظمات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة (اليونيسمو)، بأنه «نحتاج إلى الاستمرار في الإنجاز الذي تحقق في قطاع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة وريادة الأعمال، وعلينا التفاعل مع شركائنا العالميين في هذا المجال، ونحن نتطلع إلى إيجاد خطط وبرامج تهدف إلى إيصال صوت وتطلعات رواد الأعمال وأصحاب المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى الدول وصناع القرار حول العالم، والاطلاع على أفضل الممارسات العالمية الناجحة، والمساهمة في تطوير بيئة مشجعة لقطاع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ليس في البحرين فقط بل أيضا حول العالم».

وأشار الشعلة إلى أن أكثر من فقد عمله اليوم ينتمي للشركات الكبرى في ظل جائحة كورونا، في حين أن الشركات الصغيرة والمتوسطة كانت الأكثر قدرة على المحافظة على استقرارها مقارنة بحجم التأثر، وقال «نتحدث عن قطاعات كثيرة تضررت في ظل الجائحة مثل شركات الطيران والشحن والنقل والفنادق وغيرها، ولكن بفضل السياسات وبرامج الدعم التي تبنتها مملكة البحرين والتي كانت محط إشادة واسعة من الخبراء والمتابعين، كان لهذه السياسات الإيجابية الأثر في حفظ الاستقرار وضمان الحد من الضرر قدر الإمكان».

وأكدّ الشعلة أهمية الاهتمام بهذا القطاع وقال إنه بسبب الدعم الذي قدم لهذه المؤسسات تمكنت من الاستمرار والبقاء، بل هناك بعض الأعمال استطاعت أن تتكيف مع الظروف الجديدة، وهناك أعمال جديدة برزت مثل التوصيل والخدمات المنزلية وتنظيم الاجتماعات عن بعد وغيرها، وبالتالي ثمة واقع اقتصادي جديد يتشكل بمعطيات جديدة تستوجب مواكبتها.

وكالة أنباء البحرين - 26/ 8/ 2020

«تقدّم» تجدد رفضها لمشاريع التطبيع وتؤكد على حقوق الشعب الفلسطيني

اكدّت كتلة تقدم البرلمانية إن سياسات التطبيع المراد فرضها عنوة على شعوبنا ودولنا، عبر ممارسات الابتزاز والتهديد المستمرة لن تزيد شعوبنا العربية وكل القوى المحبة للسلام والحرية حول العالم، الا تمسكا ودعما لقضية شعبنا الفلسطيني العادلة، وانطلاقا من كل ما تقدم سنقف مع شعبنا على الدوام مساندين ومؤازرين لإستعادة حقوق شعبنا العربي الفلسطيني، في وجه آلة العدوان ومشاريع الاستيطان الصهيونية، التي تحاول تكريس سياسة الأمر الواقع متمادية في احتلال وتهويد المزيد من الأراضي في الضفة الغربية والقطاع، والتهديد بفرض الهيمنة على مناطق واسعة من غور الأردن والبحر الميت.

كما شدّدت الكتلة، في بيان أصدرته بعد الإعلان عن توصل مملكة البحرين إلى اتفاق مع إسرائيل، على موقفها الثابت والرافض لمحاولات التطبيع السياسي والاقتصادي والثقافي مع الكيان الصهيوني، الذي لازال يمارس جرائمه بشكل سافر بحق أبناء شعبنا الفلسطيني، ويرفض في غرور

وصلف الانصياع للقرارات الدولية ذات الصلة بالقضية الفلسطينية، مستفيدا من حالة التراخي العربي والدولي، ومما تقدمه الإدارة الأميركية من دعم مباشر وغير مباشر له، تحت يافطات ومشاريع تكرس مجددا مبدأ الهيمنة الاستعماري، وتنتقص بصورة غير مسبوقة من كامل الحقوق الفلسطينية المشروعة والعادلة.

وقالت الكتلة في بيانها: إن الترويج لصفقات احادية، يأتي ضمن ما بات يعرف بمشروع صفقة القرن، والذي يعلم الجميع انه يوظف بشكل سافر لمصالح انتخابية ومشروعات هيمنة معلنة وغير معلنة، يتم من خلالها تسويق الوهم لشعوب ودول المنطقة، في وقت يتمادى الكيان الصهيوني العنصري وداعميه في غرورهم وصلفهم وتجاهلهم للحقوق الفلسطينية المشروعة، وللقيم والمبادئ التي تربت عليها أجيال متعاقبة من أبناء شعبنا العربي عامة، ومن بينها شعبنا البحريني الذي وقف بمختلف شرائحه على الدوام إلى جانب الحق الفلسطيني المدعوم من كافة قوى الحق والعدل والسلام حول العالم.

وختمت "تقدّم" بيانها بالقول: "نجدد رفضنا لأي نوع من انواع التطبيع ونقف الى جانب قضية شعبنا الفلسطيني العادلة، رافضين لكل ما يروج من مشاريع وصفقات عنوانها الابرز تركيع الشعوب واذلال الانظمة القائمة، وإشاعة الفوضى في هذه المنطقة الحيوية من العالم، والتي يجب أن تسعى حكوماتها وشعوبها متحدة لتحقيق الاستقرار والتنمية بدلا من الإنسياق خلف مشاريع الحروب والانقسامات التي لا تتوقف".

ردا على الخدمة المدنية

زينل: مسؤول بإحدى الوزارات أكدّ إيقاف الديوان للتوظيف

تعقيباً على قول رئيس ديوان الخدمة المدنية أحمد الزايد إن عملية التوظيف في الوزارات لم تتوقف خلال جائحة كورونا، أكد عضو كتلة «تقدّم» النائب يوسف زينل أن الواقع يشير إلى عكس ذلك تماماً، موضحاً أن مسؤولاً في إحدى الوزارات أكدّ له في حديث مباشر قبل شهر تقريباً أن التوظيف متوقف نهائياً في الفترة الحالية، من قبل ديوان الخدمة نفسه، والسبب يعود إلى الميزانية.

ودعا زينل إلى ضرورة تصويب منهجية عمل الديوان وسياساته تحديداً المستمرة منذ أكثر من عقد من الزمان والمتعلقة بالالتزام ببحرنة القطاع الحكومي الذي لا يزال يضم آلاف الوافدين رغم وجود الكفاءات البحرينية القادرة على شغل غالبية وظائفهم في وزارة التربية ووزارة الأشغال وهيئة الكهرباء وغيرها.

وقال زينل أن ديوان الخدمة المدنية ضالع في عملية عرقلة إحلال البحرينيين محل الأجانب في القطاع الحكومي، وهو الأمر الذي خلصت إليه لجنة التحقيق في البحرنة، داعياً الحكومة لأخذ الدرس مما أفرزته أزمة كورونا، والشروع في معالجة خلل عملية التوظيف، بمنح ابن البلد أولوية العمل في أجهزة الدولة والالتزام بالنص الدستوري الخاص بذلك وما تعهدت به الحكومة ذاتها في برنامج عملها.

وواصل زينل: «اليوم أكثر من أي وقت مضى، تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وبات جلياً كارثية السياسة الرسمية التي تفضل الوافد على ابن البلد، حتى بتنا رهائن أزمات اقتصادية واجتماعية متداخلة، وأعباء تكشف حجمها مستويات الدين العام المتزايد والعجز السنوي المتراكم، والاستمرار مكرهين على سياسة الاقتراض من أجل كبح جماح ذلك».

في ندوة نظمّها الاتحاد النسائي البحريني

هاشم يتناول وضع المرأة العاملة في الاقتصاد غير المنظم

شارك عضو كتلة «تقدّم» النائب السيد فلاح هاشم في ندوة نظمت من قبل الاتحاد النسائي عن وضع المرأة العاملة في الإقتصاد غير المنظم، أوضح فيها رؤيته حول الأسباب المؤدية إلى تنامي هذه الظاهرة، وتناول جوانب المعاناة المختلفة التي تواجه كل العاملين، بمن فيهم النساء، في الأعمال التي لا تخضع لمظلة قانونية، تحمي حقوقهم، وتوفر لهم الضمانات الاجتماعية التي يضمنها القانون.

شارك في الندوة الأستاذة هبة سليم الأمين العام المساعد للمرأة والطفل في الاتحاد العام لنقابات عمال البحرين، ممثلة للاتحاد، وأدارت الحوار الأستاذة فاطمة ربيعة من الاتحاد النسائي.

بعد إعلانها الآلية الجديدة لاستقدام العمالة الوافدة

هيئة سوق العمل مطالبة بالإعلان عن حصة البحرينيين في التوظيف

دعا عضو «تقدّم» النائب يوسف زينل هيئة تنظيم سوق العمل إلى نشر نتائج نشر الوظائف الشاغرة بشكل يومي في الصحف المحلية، والتي تأتي ضمن الآلية الجديدة لاستقدام العمالة الوافدة.

وأوضح زينل أن الآلية المعلن عنها بنشر الشواغر الإشادة تستحق الإشادة، بوصفها مبادرة تتيح لجميع المعنيين التعرف على حقيقة أوضاع سوق العمل وذلك عبر مؤشر إنتاج وخلق الوظائف، وهو أمر بالغ الأهمية لشريحة الباحثين عن عمل ولكل جهة معنية بالاتجاهات الجديدة لسوق العمل ووظائفه، وما يرتبط بذلك من حاجة لمواءمة متطلبات هذا السوق مع مخرجات التعليم في البلد.

لكنه استدرك مؤكداً أنه بعد مضي شهر كامل على تدشين هذه الآلية، فإن السؤال الذي يراود القطاع الواسع من البحرينيين يتركز حول نصيب أبناء البلد من الشواغر التي تملأ بشكل يومي صفحة كاملة في صحفنا المحلية، وتفعيلاً للشفافية، ومن أجل التقييم السليم لعمل هذه الآلية وقياس حجم استفادة المواطن منها، شدّد زينل على ضرورة قيام الهيئة بنشر النتائج بصفة دورية، خصوصاً وأن الشواغر متاحة للمواطن والوافد المقيم حالياً في البلد.

منتقداً بيان مصرف البحرين المركزي حول القروض:

زينل: غامض ومقتضب.. ولم يجب على كل الأسئلة

على صعيد آخر انتقد عضو «تقدّم» النائب يوسف زينل البيان الصادر عن مصرف البحرين المركزي، والخاص بتأجيل أقساط قروض المواطنين البنكية، قائلاً إنه جاء مقتضباً وغامضاً بشأن تفاصيل التأجيل وما إذا كان القرار ملزماً لجميع البنوك أم أن الأمر سيكون رهن (عدم التأثير على سيولتها)؟

وأضاف زينل: لم يجب البيان على أسئلة المواطنين، خاصة تلك المتعلقة بمقدار الفائدة التي ستحتسب مقابل التأجيل والرسوم المقررة، محذراً من ترك تفاصيل القرار لكل بنك على حدة بما من شأنه فتح الباب على مصراعيه لبعض البنوك لاستغلال التأجيل من أجل تحقيق أرباح وتعديل أوضاع على حساب المواطن المنهك بالأعباء المعيشية والقروض.

ودعا زينل، المصرف المركزي إلى إصدار نسخة تفصيلية لقرار التأجيل وعدم ترك الأمور على غموضها وأن يكون موقف المصرف المركزي ميال لمصلحة المواطن.

تقييد المناقشة العامة

تضييق جديد على الدور الرقابي لمجلس النواب

البرلمان كما يقول فقهاء القانون العام هو قبل كل شيء جمعية مراقبين، مهمته الأولى – وربما الأكثر أهمية من التصويت على القوانين – هي مراقبة الحكومة عن طريق طرح موضوع عام للمناقشة وتوجيه الأسئلة والاستجوابات وسحب الثقة، وتشكيل لجان التحقيق ومناقشة الميزانية وإجبار الحكومة على تبرير تصرفاتها وقراراتها أمام الناس (أنظر في ذلك الدكتور عثمان عبد الملك الصالح الرقابة البرلمانية على أعمال الإدارة في الكويت، مجلة الحقوق والشريعة – جامعة الكويت – العدد الرابع السنة الخامسة ديسمبر ١٩٨١).

وقد أقرّ دستور مملكة البحرين 2002 شأنه في ذلك شأن دستور1973 مبدأ إخضاع أعمال الحكومة للرقابة البرلمانية، إلا أن دستور 2002 رغم انه قد انتقص من وسائل هذه الرقابة بأن ألغى بعضها، وقلّص من صلاحيات بعضها الآخر، إلا أن هذه الوسائل ظلت في هذا الدستور أدوات هامة بيد أعضاء مجلس النواب لمراقبة الحكومة متى ما استخدمت استخداماً فعالاً، ومتى ما ألغيت القيود التي وضعتها اللائحة الداخلية عليها، ومتى ما وجد النائب الذي يتقن فن استعمالها.

غير أن قراءة تجربة أعمال مجلس النواب الجديدة التي بدأت في ظل المشروع الإصلاحي منذ الفصل التشريعي الأول في ديسمبر 2002 وحتى دوري الانعقاد الأول والثاني من الفصل التشريعي الخامس الراهن 2020، تكشف أن الحكومة رغم القيود التي وضعتها على وسائل الرقابة البرلمانية كانت وما تزال تخشاها، وظلّت الحكومة على مدار عمر هذه التجربة تضع من القيود الجديدة على هذه الوسائل.

ولعل أحدثها ما قامت به مؤخرا في ديسمبر 2020 بإصدار مرسوم بقانون رقم (26) لسنة 2020 بتعديل المادة (173) من المرسوم بقانون رقم (54) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس النواب ودون ان تكون هناك تدابير لا تحتمل التأخير، فنصّ هذا التعديل على قيود جديدة بشأن طلب المناقشة العامة أقلّ ما يقال عنها أنها أفرغت المناقشة العامة من محتواها ومن الغاية التي شرعت لأجلها، حين نص التعديل على أنه:

لا يجوز لأكثر من عشرة أعضاء الاشتراك في المناقشة العامة.

و يجب ألا تزيد مدة المناقشة لأي عضو على خمس دقائق.

ولا يجوز أن تتضمن المناقشة توجيه النقد أو اللوم أو الاتهام، أو أن تتضمن أقوالاً تخالف الدستور أو القانون أو تشكل مساساً بكرامة الأشخاص أو الهيئات أو إضراراً بالمصلحة العليا للبلاد.

المقصود بالمناقشة العامة

يقصد بطرح موضوع عام للمناقشة هو طرح موضوع له أهمية عامة للمناقشة داخل البرلمان، يشترك فيها جميع أعضائه بقصد استيضاح سياسة الحكومة حول هذا الموضوع، وتبادل الرأي بشأنه، ويعدّ من الأساليب الرقابية الهادئة التي تهدف إلى إجراء حوار بين البرلمان والحكومة

المحامي حسن إسماعيل

حول موضوع له أهمية معينة؛ بقصد الوصول إلى حل يتفق عليه الطرفان، ولذلك فإن البعض يعدّه من قبيل تبادل الرأي والتعاون بين البرلمان والحكومة من أجل تحقيق المصلحة (أنظر د. يحيى الجمل. النظام الدستوري في جمهورية مصر، التوكيلات التجارية العالمية، 1974، ص 226).

ما مدى انسجام التعديلات مع خصائص المناقشة العامة؟

إذا كانت المناقشة العامة كوسيلة من وسائل الرقابة البرلمانية تحمل هذا المعنى، فما مدى انسجام وتوافق التعديل الذي أجراه المشرع على المادة (173) من المرسوم بقانون رقم (54) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس النواب مع الخصائص التي تمتاز بها وسيلة طرح موضوع عام للمناقشة ؟؟

التعديلات تتعارض مع خاصية عمومية المناقشة العامة

أن من اهم وابرز خصائص المناقشة العامة التي أوجدها الفقه والقانون الدستوريين، أنها وسيلة جماعية وأن المناقشة فيها يتعين تكون عامة، وأن الأساس الجوهري التي تقوم عليه وتمتاز به وسيلة طلب طرح موضوع عام للمناقشة العامة كوسيلة من وسائل الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة هي ان تكون المناقشة عامة بمعنى أن يشارك فيها جميع أعضاء المجلس النيابي أو على الأقل الراغب منهم، وذلك باعتبارها وسيلة جماعية وليست فردية بنص الدستور في مادته (68 / البند ب) التي تستلزم أن يتوافر في طلب طرح المناقشة العامة عدد موقع من خمسة أعضاء على الأقل .

وبناء عليه وهديا به فإن ما أجراه المشرع من تعديلات على نص المادة (173) من اللائحة الداخلية لمجلس النواب بتحديد عدد عشرة أعضاء فقط للاشتراك في المناقشة العامة يخالف ويناقض الأساس الذي يقوم عليه طلب طرح موضوع عام للمناقشة العامة، وهو عمومية المناقشة، أي حق من يريد من أعضاء مجلس النواب في المناقشة دون تقييد ذلك بعدد معين.

غير أن هذا الرأي يصطدم بما فسرته المذكرة التفسيرية للمادة (68 / البند ب) من تفسير ملتوٍ يخالف ما استقر عليه الفقه الدستوري وما تسير عليه معظَم الدول في دساتيرها حين نصّت على أن تنظيم طرح موضوع عام للمناقشة العامة سيخضع (وفقاً للإجراءات التي ستنص عليها اللائحة الداخلية للمجلس وخاصة تحديد عدد من يشترك في المناقشة).

إذ يعدّ وفقا لتفسير المذكرة التفسيرية المذكورأن تعديل اللائحة الداخلية بتقييد عدد المشاركين في المناقشة العامة لا شبهة فيه من الناحية الدستورية باعتبار أن للمذكرة التفسيرية قوة إلزام مساوية لنصوص الدستور.

لا جدوى من المناقشة دون توجيه النقد واللوم

إذا كان من المقبول أن يحدد التعديل وقتا للمناقشة مدته خمس دقائق لكل عضو من الأعضاء العشرة، وإذا كان صحيحاً أن ينص التعديل على عدم إجازة توجيه الإتهام في المناقشة العامة – لأن هذه الوسيلة لا تهدف إلى توجيه الاتهام للوزير بهدف تحريك مسؤوليته السياسية كما هو الحال في الاستجواب ،بل تهدف إلى الوصول إلى حل بإصلاح الوضع أو المشكلة محل موضوع المناقشة بالتعاون بين البرلمان والحكومة –.

غير أنه ليس من المقبول على الاطلاق أن يشتمل التعديل على عدم إجازة توجيه النقد أو اللوم إلى الوازرة المعنية عند مناقشة موضوع عام يتعلق بها، فلن يكون لمناقشة الموضوع العام أي جدوى ولن يحقق الهدف منه دون نقد أو لوم، وسيكون النقاش فيه مضيعة للوقت، فلا إصلاح للمشكلة دون انتقاد.

المسكوت عنه رسمياً حول أعداد العمالة غير المنظمة

يتفق الجميع على أن العمالة غير المنظمة فى حدّ ذاتها، هى ظاهرة عالمية الطابع، وتعانى منها الدول المتقدمة مثلما تأن من وطأتها الدول النامية، وهي ليست وليدة اليوم، إلا أن تقدّم وتطور البشرية، الذي بدأ مع الثورة الصناعية ساهم في تغيير نمط الحياة وفق متطلبات المرحلة عند انشاء المصانع بما تحتويه من عمالة منتظمة فيها، مما أضفى على جميع جوانب الحياة صفة التنظيم وعلى جميع الصعد الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الأنشطة الانسانية، مع بقاء هذه الظاهرة بدرجات متفاوتة بين بلد وآخر لعدة عوامل.

فلاح هاشم

فوفق تعريف منظمة العمل الدولية؛ يضم الاقتصاد غير المنظم كل الأنشطة الاقتصادية للعاملين، وكذلك الوحدات الاقتصادية التي لا تشملها الإجراءات الرسمية ومقتضياتها التنظيمية والتشريعية، وبذلك فإن فئة العاملين في هذه القطاعات والأنشطة لا تشملها القوانين، أو لأن القوانين التي من المفترض أن تحميهم غير مطبقة.

وينتج من هذا التعريف أن الاقتصاد غير النظامي أو (غير المنظم ويسمى أيضاً غير المهيكل أو غير الرسمي) يفتقر إلى الآلية التنظيمية، وبذلك ينعدم فيه تطبيق ما تنصّ عليه قوانين العمل والحماية الاجتماعية وغيرها من القوانين، بما فيها افتقار العاملين فيه لحقهم في التنظيم النقابي.

وبالمقاربة الحقوقية للموضوع، لمفهوم «العمل غير المنظم» وما ينتج عنه من صعوبة، إذا لم نقل انعدام امكانية تحقيق شروط العمل اللائق، والتي تتطلب ضمان التحقق من العديد من الحقوق الأساسية في العمل وتتمثل في أوجه المعاناة التالية للمصنفين تحته:

عدم خضوعهم للقانون أو في الممارسة.

لا يتمتعون بالحماية الاجتماعية (التأمين الاجتماعي – تعويضات التعطل)

ساعات عمل غير محددة ولا يتحصلون على إجازة السنوية أو مرضية مدفوعة الأجر.

أجور خارج سلم الأجور المعتمدة أو المحددة.

أصحاب عمل غير محددين ومواقع عمل غير محددة وبدون عقد عمل.

افتقادهم للإخطار المسبق بالفصل من العمل، أو تعويضات الفصل عن العمل.

لا معايير واضحة لتعريف الوظائف والمهن.

وغالباً ما تنتشر بينهم الوظائف المؤقتة، أو الوظائف ذات المدة القصيرة والمحددة؛ والغالب منها خارج بيانات العمل الوطنية أو أنها تساهم في التضليل عليها.

وقد شهدت هذه العمالة طفرة في أعدادها، وذلك بسبب سياسات العمل المتوافقة مع توجيهات المؤسسات المالية الدولية (صندوق النقد والبنك الدولي)، والتي تقوم على أساس إنهاء تدّخل الدولة لتقنين سوق العمل، أو كما تطلق عليه (تفعيل مرونة سوق العمل) عن طريق إزالة هذه القيود، بتغيير قوانين العمل تحت ذريعة إستقطاب مزيد من الاستثمارات الخاصة، ولتحسين التنافسية للرفع من قدرة الاقتصاد، ومن أجل تقليص تكاليف التشغيل ويتضمن تسهيل عمليات التوظيف والتسريح، ورفع القيود عن العمل بعقود محددة الأجل، وإعطاء أصحاب الشركات حرية أكبر لتحديد ساعات العمل. هذا عدا عن خصخصة القطاع العام، خاصة في القطاعات الخدمية (كهرباء – صحة – تعليم – مواصلات .. وغيرها).

ويؤكد صندوق النقد الدولي على أن مرونة سوق العمل يعدّ عاملاً أساسياً في قياس سهولة ممارسة أنشطة الأعمال التي يعتبرها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي مدخلاً أساسياً لتحرير طاقات القطاع الخاص، خصوصاً ما يتعلق بتوظيف العاملين، وفصلهم من الخدمة بسبب «التوظيف المفرط» وبذلك يتم تخفيض تكلفة الفصل.

ودائماً ما تكون وصفة هذه المؤسسات لجميع الدول لمواجهة أزماتها الاقتصادية ضمن حزمة الشروط للحصول على القروض المطلوبة وتترافق مع:

تجميد أو خفض التوظيف في القطاع العام

إخراج أعداد كبيرة من العملية الانتاجية لسياسات الخصخصة في القطاع العام والقطاع الخاص.

عدم إستيعاب الداخلين الجدد لسوق العمل من المواطنين.

توفير العمالة من مقاولين الباطن.

مزيد من تسهيلات جلب عمالة وافدة متدنية الاجور.

غياب وإفتقار شبه تام للعديد من الحقوق لقطاع كبير من أعداد القوى العاملة.

وأدى تراجع العمل الرسمي المهيكل أو المنظم الى نتائج تجلت في:

تنامي أعداد العمالة غير النظامية وبعدة أوجه في ما بين العمالة الوافدة (السائبة وحاملي الترخيص المرن)، وذلك لعدة أسباب من ضمنها المتاجرة بالتأشيرات أضف اليه ما ينتج عن تعثر بعض اصحاب الاعمال مما يؤدي الى عجزهم من دفع مستحقات عمالهم خاصة حق مكافأة نهاية الخدمة، التي تتراكم على صاحب العمل، نتيجة لعدم خضوع هذه العمالة لمظلة التأمين الاجتماعي، مما يؤدي إلى تهريب هذه العمالة إلى السوق كعمالة سائبة والتي عالجتها الجهات التنفيذية بالتصريح المرن.

ندرة فرص العمل وإنعدامها في العديد من التخصصات مما أدى إلى بطالة لأعداد كبيرة من العمالة الوطنية ولسنوات طويلة، حيث توجهوا إلى هذه الأعمال وخاصة في صفوف النساء.

إنسحاب الدولة من مسؤوليتها المجتمعية في عدة مجالات ومن ضمنها مسؤوليتها في كفالة الحق في العمل بتقديم مشاريع هشة تعتمد على مثل هذه العمالة وتنتقص العديد من الحقوق، ومن الأمثلة عليها (العاملات في حياكة الصوف، أو الرائدات الاجتماعيات وكذلك العاملين في مشروع المنزل المنتج .. وغيرها).

تنامي العمل غير المهيكل.

تراجع في منظومة التنظيم العمالي كنقابات.

وهنا يبرز سؤال عن الحجم الحقيقي لأعداد هذه العمالة والقطاعات التي تعمل فيها في البحرين:

لغياب الإحصائيات الرسمية ولإفتقارنا إلى مراكز الدراسات المستقلة، ولتداخل بعض الإعتبارات لدى المسؤولين في الجهات التنفيذية بتجاهل أو عدم الإعتراف بهذه الظاهرة أو التقليل منها، سنستقي مما يرشح من بعض التصريحات والإعلانات الرسمية، ومن خلال هذه التصريحات نقدرها كالأتي:

في صفوف العمالة الوافدة هناك ما يقارب 30 ألف من حملة الترخيص المرن، إضافة إلى ما يزيد على 50 ألف من العمالة السائبة ايضاً (بما مجموعه أكثر من 80 ألف عامل) من العمالة الوافدة.

بالنسبة للبحرينين، حاولت أن استنبط بعض الأرقام من التصريحات وبعض الإحصائيات الرسمية.

فوزير العمل يذكر في منشور على موقع الوزارة الإلكتروني عن أعداد ونسبة البطالة في عام 2018 أن إجمالي عدد القوى العاملة الوطنية هو 197123 بينهم 8399 عاطل عن العمل، وبمقارنتها بإحصائيات هيئة التأمين الاجتماعي من المواطنين التي تبين أن أعداد المشتركين في هيئة التأمين الاجتماعي في نفس الفترة ما مجموعه 147458 مشترك بحريني يتضح عندنا أن عدد غير المؤمن عليهم 41266 وبنسبة يقارب الـ22٪ بين العمالة الوطنية، وهم من أشار إليهم الوزير من العاملين كسواق وأصحاب مهن .. الخ، اي ممن يعدّون عمالة غير منظمة.

وبذلك يمكن القول إن أكثر من خمس العمالة الوطنية تعمل في هذا القطاع، علاوة على ما يقارب 16٪ من العمالة الوافدة وبمعدل إجمالي يفوق 17.5٪ .

السبيل لإخراج صناديق التقاعد من التعثّر

د. حسن الماضي

لا يختلف اثنان بأن وضع صناديق التقاعد يحتاج إلى معالجة طارئة، لانقاذها من حالة التعثر التى وصلت لها وإبعادها عن شبح الافلاس، كي لا نصل إلى فقدانها قدرتها على الإيفاء بالتزامتها، لا سمح اللّه، للمتقاعدين الحاليين أو من سيتقاعدون في المستقبل. فحالة اللاتوازن التى تمرّ بها ما بين الاشتراكات والمدفوعات أصبحت أمراً يقلق الجميع من المسؤولين والمهتمين بشأن العمال والموظفين وعوائلهم. ما وصلت إليه هذه الصناديق هو نتيجة لقرارات تراكمية على مرّ السنين، أدّت إلى الحالة التى يستوجب الوقوف عندها وتحليلها تحليلاً متجرداً بعيدًا عن أية أهداف ،سوى مصلحة صناديق التقاعد، ومحاولة للبحث عن بعض الحلول والمقترحات التى قد تساعد في خروجها من الوضع المأزوم الذى وصلت إليه.

وعليه، لابد من النظر بصورة تحليلية لكل صندوق على حدة، لمعرفة وتحديد الأسباب التى أوصلته إلى هذه الوضعية المقلقة والتى تستوجب التدخل الطارىء من أصحاب القرار باتخاذ اجراءات انقاذ طارئة.

يوجد في البحرين أربعة صناديق تقاعدية هي: (صندوق التقاعد المدني، صندوق التقاعد للقطاع الخاص، صندوق التقاعد للقطاع العسكرى، وصندوق النواب والشوريين والبلديين)، ولكل صندوق منها حالته الخاصة وظروفه التى تحتاج إلى علاج بصورة مستقلة، علماً بأن صندوق التقاعد العسكري في حالة أفضل من بقية الصناديق وذلك لانضباط ادارته، وتوازن الاشتراكات والمدفوعات بعيداً عن الصناديق الأخرى.

ومنذ بداية تأسيس منظومة التقاعد تمّت هندسة مزايا التقاعد لكل صندوق بناءً على نسبة الاشتراكات التى يدفعها المؤمن عليه وأصحاب العمل، سواء كانوا جهة حكوميه أو قطاعاً خاصاً، بالإضافة إلى نسبة العوائد المتوقعة من استثمار فوائض الاشتراكات، لتكون رافداً لمعاشات التقاعد للمستقبل.

فجات نسب الاشتراكات، بحسب المشرع آنذاك، متساوية، تغطي مزايا التقاعد وتفيض جزءاً يتمّ استثماره، ليضاف إلى الحصيلة الكلية للصناديق، وبسبب التغيرات التى طرأت على الاشتراكات والمزايا في كل الصناديق حصلت حالة عدم توازن بين الاشتراكات مقابل المزايا التقاعدية التى تصرف للمتقاعدين، فأصبحت نسب الاشتراكات كالاتي:

أولاً: القطاع الخاص
6٪ من راتب العامل
9٪ من رب العمل
المجموع 15٪ من مجموع الراتب

ثانياً: القطاع العام
6٪ من راتب العامل
15٪ من رب العمل
المجموع 21٪ من مجموع الراتب

ثالثا: أعضاء مجلسي الشورى والنواب والمجالس البلدية
10٪ للموظف
20٪ للحكومة

راكم ذلك حتى 2019 مبالغ احتياطية للصناديق، موزعة كالتالي:

القطاعان العام والخاص ومجالس الشورى والنواب والبلديين: 3.9 مليار تقريبا لعام 2019

ناتج مجموع اشتراكات الصناديق مشتركة 569 مليون تقريباً.

بالإضافة إلى متوسط عوائد بحوالي 90 مليون دينار سنوياً.

مقابل مجموع التزامات ومعاشات الصناديق مشتركة تبلغ 568 مليون تقريباً، مما ينذر بوجود حالة عدم توازن او تطابق ما بين الاشتراكات واللاتزامات .

ففي العام 1986 تمّ تخفيض نسبة اشتراكات اصحاب العمل في القطاع الخاص لتكون 9٪ بدلا من 15٪ ، وهو ما أخلّ بميزان التعادل ما بين محصلة الاشتراكات وقيمة المزايا الممنوحة للمتقاعدين، وتسبب في خسائر كبيرة لصندوق التقاعد الخاص بلغت بالقيمة الحالية حولي 124 مليون دينار سنوايا على الأعوام الماضية. وهذا يعتبر احد اسباب الخلل التى ادت الي حالة عدم التوازن في صندوق القطاع الخاص.

ولو نظرنا بصورة سريعة لتركيبة الاستثمارات لاحتياطيات الصنادق التقاعدية (المدني والخاص والشورى والنواب والبلديين)، سنرى بأنها تتكون من استثمارات في الأوراق النقدية والسندات تبلغ حوالي 2 مليار دينار بحرينى واستثمارات عقارية بحوالي 260 مليون دينار بحرينى، وودائع نقدية لدى البنوك 850 مليون دينار بحرينى تحقق عوائد في المتوسط لآخر خمس سنوات بنسبة 2.7٪ على جميع الاستثمارات التى تتكون من جزئين: (استثمارات قام بها الفريق المختص بالشركة التابعة للتقاعد، شركة أصول، بعد الدراسة والتمحيص الحرفي بلغت نسبة عوائده خلال الخمس سنوات الماضية 7.8٪ ، بالإضافة إلى استثمارات موجهة لأسباب أخرى، قدّمت على سبل دعم لوجستى أو انقاذ لمؤسسات مالية لأهداف وطنية، لا تحقق العوائد المرجوة أسوة بالاستثمارات الأخرى) أدت إلى متوسط عوائد بحوالي 90 مليون سنوياً، كان أسوأها عام 2018 حين انخفضت الأرباح لتصل إلى 54 مليون .

فلقد باتت واضحة حالة اللا توازن منذ العام 2015 وتضاعفت بصورة دراماتيكية في عامي 2018 و 2019 وذكل جراء إغلاق وتحويل صندوق تقاعد الشورى والنواب والبلديين على صندوق التقاعد بكافة مستحقاته التى تدفع إلى 297 عضو بتكلفة سنوية تبلغ 5.7 مليون دينارسنوياً، دون أي اشتراكات تدفع من المؤمن عليهم والتي كانت تبلغ في السنة 2 مليون دينار تقريباً، بالإضافة إلى طرح برنامج التقاعد الإختياري لموظفي الحكومة الذى خرج ضمنه 8203 موظف بلغت تكلفة معاشاتهم السنوية 62 مليون دينار، وتكلفة مكافأة نهاية الخدمة 99 مليون دينار، وتمت إضافة خمس سنوات فرضية لحسابتهم بتكلفة دفترية نبلغ حوالي 500 مليون دينار. رفعت معاشاتهم التقاعدية بنسبة 20٪ .

وفي الجهة الأخرى خفضت الاشتراكات التى كانوا يدفعونها بمبلغ 108 مليون سنوياً، الأمر الذي خلق سابقة لم تعهدها الصناديق طول الفترة السابقة. فوصل النقص بين الاشتراكات والمدفوعات بنسبه 10٪ بين كل الصناديق، فكان نصيب الصندوق المدني عجز في التوازن بين الاشتراكات والمدفوعات 9٪ وعجز بين صندوق القطاع الخاص 1٪ . وهذا نتيجة عجز اكتواري يساوي 14 مليار بحسب الدراسة الاكتوارية التى أعدّت لمدة 50 سنه قادمه حتى عام 2068.

قدّمت إدارة التامينات حزمة اصلاحات طارئة حملت المزايا التقاعدية تكلفة الإصلاح، فأوقفت الزيادة السنوية التى كانت تدفع للمتقاعدين بنسبة 3٪ سنوياً، محسوبة على الراتب التقاعدي لتغطية تكلفة التضخم في تكلفة المعيشة. كما منعت الجمع بين المعاشات للمتقاعدين، ومنعت، أيضاً، الجمع بين الراتب والمعاش لمن يعمل ويتقاضى معاشاً تقاعدياً، وأمرت بدمج الصناديق بهدف تقليل التكلفة التشغيلية.

وكان متوقعاً أن تلامس الإصلاحات أسباب العجز الفعلية، التىأوصلت الصناديق لحالة عدم التوازن وهي:

تغطية معاشات صندوق الشوري والنواب والبلديين.

تصحيح وضعية اشتراكات ارباب العمل بالنسبة للقطاع الخاص واعادتها للنسبة الأصلية، وهي 15٪

تغطية تكلفة شراء سنوات اعتبارية لبرنامج التقاعد الاختياري لموظفي الحكومة.

احتساب فوائد حقيقية على الاستثمارات التى قدّمت لدمع بعض المؤسسات أو استرجاعها حين موعدها.

اعادة النظر في التكلفة التشغيلية التى قفزت بنسبه 130٪ عما كانت عليه قبل العام 2015.

الاستخدام الأمثل للأصول الثابتة للصناديق وتشغيلها بصورة فاعلة، فيجب ترك المبنى المؤجر والعودة إلى المباني المملوكة للصناديق.

اعادة تشكيلة المحفظة الاستثمارية، وإعطاء مساحة أكبر لفريق الاستثمار للبحث عن استثمارات مجزية بدلاً من الودائع الثابتة ذات المردد الضعيف مقارنة بالفرص الاستثمارية الأخرى.

تطوير الاستمثار في العقار المملوك للهيئة بدلاً من ترك الأراضي بيضا دون مردود.

وضع دراسة اكتوارية شاملة تعطي ابعاداً مدروسة لكل قرار وعوائده المتوقعة على الصناديق، ورسم خطة واضحة تبين المدد الزمنية المتوقعة من كل تغيير.

بصراحة

المثقفون والكتاب الخليجيون والترويج للتطبيع مع الكيان الصهيوني

أيها المارون بين الكلمات العابرة
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا
ولتموتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا
فلنا في أرضنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأول
ولنا الحاضر، والحاضر ، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا .. والآخرة

«محمود درويش»

فاضل الحليبي

نبدأ مقالنا بهذه الأبيات الرائعة للشاعر الفلسطيني الكبير الراحل محمود درويش، لنقول إن أفظع شيء هو تبرير عملية التطبيع من قبل مثقفين وكتاب خليجيين يريدون ترسيخ ثقافة التطبيع مع الكيان الصهيوني بأقوال وكتابات لا يمكن أن تصدق كيف لهذا المثقف أو الكاتب الذي كان بالأمس القريب يكتب عن القضية الفلسطينية وعن أطفال فلسطين الذين يُقتلون في وطنهم أو الذين يشاهد العالم بكاءهم وجرافات الاحتلال الصهيوني تهدم بيوتهم في القدس الشرقية، لتحرمهم من العيش في بيوتهم وتريد ان تمحي ذكرياتهم.

عرضت العديد من القنوات الفضائية تلك المشاهد المؤلمة، والبعض من أطفال فلسطين لازال آباؤهم في السجون والمعتقلات الصهيونية، فماذا عسى هؤلاء المطبلين لسياسة التطبيع مع العدو الصهيوني أن يقولوا إلى أطفال فلسطين لكي يبرروا التطبيع مع من يسلبهم حقوقهم المشروعة حتي في العيش بسلام، تطبيع يبرر أفعال القتلة الصهاينة وعنصريتهم تجاه الشعب الفلسطيني، الذين فاقت عنصريتهم وأفعالهم الإجرامية ما قام به نظام نظام الفصل العنصري البائد في جنوب أفريقيا.

ألم يصدر قرارعن الجمعية العامة للأمم المتحدة (3379) في 10 نوفمبر من عام 1975 باعتبار «الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري»، مطالباً جميع دول العالم بمقاومة الأيديولوجية الصهيونية التي تشكّل، حسب القرار، خطراً على الأمن والسلم العالميين. ولكن القرار أُلغي في عام 1991 عندما اشترطت (إسرائيل) ذلك لقبولها المشاركة في مؤتمر مدريد.

وبالرغم من إلغاء القرار، استمرت الحكومات الصهيونية المتعاقبة في الممارسات العنصرية ضد أبناء الشعب الفلسطيني من سيِّئ إلى أسوأ بالأخص منذ مجيء رونالد ترامب لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وما قام به من نقل سفارة بلاده من تل أبيب إلى القدس بتاريخ 14 مايو 2018، وإغلاق مكتب بعثة منظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن بتاريخ 10 سبتمبر 2018 وكذلك قراره بوقف الدعم المالي لوكالة الغوث «الأونروا» التي تُعنى بشؤون اللاجئين الفلسطينيين، في محاولات للضغط على القيادة الفلسطينية لكي توافق على المشاريع التآمرية الأمريكية والصهيونية بما في ذلك «صفقة القرن». يفعل ترامب ذلك وهو الذي يوشك على انتهاء ولايته في نوفمبر القادم 2020، ولا نعرف ما إذا كان سيُنتخب من جديد في ظل استمرار التظاهرات في العديد من الولايات ضد سياساته العنصرية وإخفاقه في التعاطي مع وباء كورونا، وقضايا عديدة، داخلية وخارجية.

المستفيد الأوحد من سياسته هو الكيان الصهيوني وبشكل خاص حكام هذا الكيان، وينتظر نتنياهو العديد من المحاكمات في قضايا فساد متورط فيها، وهناك مظاهرات مستمرة ضده منذ أشهر وضد سياساته، فاتفاقيات التطبيع الموقعة تساعد قوات الاحتلال الصهيوني المعادية للفلسطينيين والعرب وتشجعها على التمادي في قمعها وقتلها لأبناء الشعب الفلسطيني والاستمرار في دعم المستوطنين، وضم العديد من الأراضي في الضفة الغربية، وتحت يافطة شعارهم القديم (السلام مقابل السلام) وشعارهم الجديد (الاقتصاد مقابل الاقتصاد)، وليس (السلام مقابل الأرض).

أكدّ الأمناء العامون للفصائل الفلسطينية على ذلك في مؤتمرهم المشترك المنعقد بتاريخ 10 سبتمبر 2020 في بيروت ورام الله في نفس الوقت، وجاء في مقدمة بيانهم (في هذه اللحظات المصيرية من تاريخ شعبنا، والتي تتعرض فيها قضيتكم المركزية لمخاطر التآمر والتصفية ومحاولات اختزالها في حلول معيشية، وتجريدنا من حقنا في تقرير مصيرنا، وإقامة دولتنا المستقلة كاملة السيادة على حدود الرابع من حزيران عام 1967، والقدس المحتلة عاصمتها، كما نصت عليه وثيقة الوفاق الوطني، وحل قضية اللاجئين وحقهم في العودة إلى ديارهم الذين هجروا منها على اساس القرار 194، تأتي المؤامرات والمخططات التي تقوم بها حكومة الاحتلال والإدارة الامريكية الحالية، من خلال صفقة القرن ومخططات الضم، وتمرير التطبيع المجاني الذي رفضه شعبنا بأكمله).

من يعمل ويشجع التطبيع مع الكيان الصهيوني عليه أن يتعلم الدرس الأبلغ ويستفيد من التجارب العربية السابقة، وبالأخص الاتفاقيات مع مصرعام 1978 ومع الأردن عام 1994، فماذا حققت على شتى الاصعدة، ليجري الحديث عن الفوائد الاقتصادية والتجارية والصناعية والسياحية، المتوقعة من التطبيع الجديد؟. ويمكن العودة إلى الكتابات والتقارير الصحفية العديدة التي كتبت من قبل كتاب وشخصيات أردنية وازنة، فهي تذكر ذلك وبالتفاصيل .

أما القول بأن هناك مخاطر تهدد دول المنطقة من هذا الطرف أو ذاك، فيتطلب تقوية الجبهة الداخلية لكل دولة والاعتماد على الشعوب، فهي السند والحامي لبلدانها عند الشدائد، وتجربة احتلال دولة الكويت الشقيقة من قبل نظام صدام في أغسطس 1990، ماثلة أمام الجميع، حكاماً وشعوباً، يجب تقييمها والاستفادة من تلك الأخطاء، بتعزيز الحريات العامة وتطوير التحولات الديمقراطية وترسيخ مفاهيم المساواة والعدالة الاجتماعية، وهي كفيلة بتقوية الجبهة الداخلية والتصدي للتهديدات الخارجية المحدقة بأوطاننا وشعوبنا من أي جهة كانت، وحل الخلافات والإشكالات بين دول مجلس التعاون الخليجي، فكل تلك عوامل تساعد على التهدئة والاستقرار وتقوي من أواصر العلاقات الأخوية والتعاون بين الأشقاء في الخليج العربي والمنطقة وتؤدي إلى الاستقرار والأمان والتنمية في بلداننا، أما التطبيع مع الكيان الصهيوني لن يجلب الاستقرار والسلم لبلداننا وشعوبنا طالما هو مستمر في احتلاله للأراضي الفلسطينية والعربية ويقف ضد إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

حاجتنا إلى برنامج اشتراكي!

في الفصل السابع من (فن الحرب) لماكيافيلي، يبين فابريتسو لباتيستا الشروط الأساسية للدفاع عن أي مدينة (بجانب من الأسباب الطبيعية)؛ إن تُرك سور المدينة عالٍ فهذا يجعل المدينة عرضة لهجمة مدفعية وإن تُرك منخفضاً فأن ذلك يسهل للعدو اختراقه، وإذا كانت الخنادق موضوعة أمام السور فإنه من السهل على العدو اجتيازها، لذا يرى فابريتسو أنه من الأفضل لو بقيت الأسوار دائماً عالية فيما الخنادق تكون وراء الأسوار لا أمامها. هكذا، إن تمكن العدو من اختراق السور فسيكون عليه مواجهة الخنادق الداخلية. لكن الأهم من ذلك كله، حسب فابريتسو، الشرط الأساسي لحماية المدينة هو توفر جند مجهز، ومنظم، وشجاعا.

هشام عقيل

لنترجم رأي فابريتسو، وهو لسان حال ماكيافيلي، بشكله المعدل بالنسبة إلى التنظيم السياسي الاشتراكي: الأسوار والخنادق تساوي قوة/ضعف التحام النظرية بالممارسة والعكس بالعكس، ايّ وجود برنامج سياسي اشتراكي واضح وفقاً لنظرية اشتراكية علمية. بينما الجند المجهز تحت قيادة الجنرالات يعتمد على علاقة قاعدة الحزب باللجان المسؤولة (اللجنة المركزية، المكتب السياسي)، ايّ الديموقراطية المركزية.

الآن، افترضوا أننا أمام هكذا جند (لا يهم مدى تنظيمه) دون أسوار، ولا خنادق، ولا جنرالات، ولا مدينة حتى! هكذا هو حال أي تنظيم اشتراكي من دون برنامج اشتراكي ولا نظرية علمية.

في السنوات الماضية انتقدتُ البرنامج السياسي للمنبر التقدمي جاعلاً من الاشتراكية العلمية معياراً استند عليه في النقد. فالنقد العلمي ليس بانتقاد، بل هو التمحيص، والفحص، والتقييم. أما النقد السياسي فهو فحص الأساس الطبقي الكامن وراء كل شيء، فإنه يبرز علم الصراع الطبقي في الأساس. وذاك يفترض هذا في الاشتراكية العلمية. هكذا، رأيتُ – ولم أنكر ذلك أبداً – بأن البرنامج السياسي للتقدمي لا يمت بصلة، لا بشكل دوغمائي تقليدي ولا بشكل محدث، بالاشتراكية (رغم أن هذا البرنامج السياسي هو الوحيد محلياً الذي يقر بإتباعه الرسمي للاشتراكية)؛ وبالتالي الأساس العلمي مفقود فيه، والأساس الطبقي الذي يستند على الصراع الطبقي البروليتاري ايضاً مفقود.

هذه حقيقة، وأي شخص يختلف معها إما لا يفقه شيئاً في علم الماركسية وإما أنه لا يمتلك حجة واضحة ليقدمها. هذه، أكررُ، حقيقة ولا عيب فيها؛ وأنها كحقيقة نتيجة لعوامل تاريخية عدة ذكرتها في مثل سلسلة النقد التي تفضلت نشرة «التقدمي» بنشرها بروح ديموقراطية لا بد أن نحييها عليها.

لماذا أصبح من الضروري اليوم بلورة برنامج اشتراكي؟، أدعو القارئ ليفكر ما إذا نجحت البرامج السياسية اليسارية البحرينية التي بمجملها إما خضعت كلياً لليبرالية ("التعويم الإيديولوجي" أو نظرية "تبريد الماركسية") وإما وقعت كلياً في الإصلاحية والقمائة البرلمانية (وهذه هي النزعة الطاغية في التقدمي). اتخيل نفسي الآن أمام مجموع اليساريين القدامى، كل منهم خاض ما خاضه من النضال في الماضي (وأي نضال كان!)، وواحد منهم بكل دماثة أخلاق يقف قائلاً: "لكن الديموقراطية درباً طويلاً، وخطواتك التي تدعو إليها سريعة وتتجاوز المراحل؛ الديموقراطية لهي تربية – ذاتية تدرجية!". لكن ما عساني أن أقول سوى بإنكم قد خلطتم ما بين الحذر، وهو واجب، وما بين التدرجية/التطورية وذلك يمثل خطراً أعظم، إذ إنه يحول دون وجود خط سياسي صحيح.

لقد بينتُ، في مقال سابق لم يتحول فحواه إلى بحث بعد، بأن الجهاز المسيطِر في الدولة البحرينية هو الجهاز القبائلي لا البرلماني، وذلك بحد ذاته ما يسبب ما سميته بالأزمة المؤسساتية. كما أنني رأيتُ بأن المشاركة في البرلمان لهي خطوة صحيحة ما إذا كانت هذه الخطوة تمثل كشف هذه الأزمة المؤسساتية للجماهير الشعبية، والعمل على هذه العقدة بالضبط. إن الذين يعتقدون بأنه سيكون هناك تطور خطي، وتدريجي، وهادئ، للديموقراطية في البحرين واقعون في وهم؛ فإن طريقة تمفصل الأجهزة نفسها تمنع على هذا التطور الخطي أن يكون ممكناً. هكذا تحول، بكل بساطة، مستحيل. هذه العقدة، "الشرباكة" مثلما نقول هنا، هي أبدية بتأبد شكل تمفصل أجهزة الدولة: المسيطرة والتابعة.

أكررُ السؤال: لماذا البرنامج الاشتراكي اليوم؟ للاسترشاد بالعمل السياسي الاشتراكي المفقود في ظل الأوضاع الراهنة والقادمة في البحرين تحديداً. أنا أعلم ماذا سيقال بهذا الشأن، استطيع أن اسمع الاستنكار بشكل مسبق والذي أصبح شيئاً أشبه بالحجة القديمة التي تعرقل كل عمل حقيقي: "كيف يمكن ذلك إن لم تكن الشروط الموضوعية والذاتية حاضرة؟"، وإن سألناكم – في المقابل – أيمكنكم تفيدونا بتفاصيل هذه الشروط؟ ستجيبون: "لا بد أن يكون هناك وعياً اشتراكياً قبل أن نتقدم بها ونعمل عليها، ومن أجل أن يتوفر هذا الوعي لا بد من العمل على الديموقراطية أولاً".

لكنكم، الأعزاء الأفاضل، تخلطون الأمور ببعضها! ليست التوعية هي شرط تبلور برنامج اشتراكي، بل وجود البرنامج الاشتراكي هو شرط وجود التوعية الاشتراكية. أدعوكم أن تفكروا معي قليلاً: وجدتم في الديموقراطية شرطاً ضرورياً لكل شيء، ونسيتم بأن الديموقراطية (والحق البورجوازي عامة) ليست محل تقديس الاشتراكيين ونحن ندعو تجاوزها أصلاً، وبعدها حملتم الكتاب بيمينكم "هلموا إلى البرلمان!". الدفاع عن الشعب، الدفاع عن المواطن، رفع المستوى المعيشي، إصلاح العقود العمالية؛ جميل! لكن حبذا لو يجيبني أحد، ما معنى كل هذه المطالب إن لم تكن مبنية، إن لم تكن مؤطرة، إن لم تكن تعمل من أجل، برنامج سياسي اشتراكي واضح؟ ما الفرق ما بين النائب العادي الذي يطالب بمثل هذه المطالب وما بين مجموعة من "التقدميين" يطالبون بها؟

لأن برنامجاً اشتراكياً مفقوداً، تجد بأن هذه المطالب إما تأتي كشكل ردات فعل وإما مبنية على أسس حقوقية؛ ولكنها ليست منظمة، ولا تسير من أجل وضع العمل الاشتراكي في مختبر الحياة اليومية. لا تظنن بأنني احصر كلامي بالعمل البرلماني وحسب، إذ إن ذلك وجه واحد من المسألة كلها، بل أتكلم عن العمل السياسي ككل. تخيلوا معي بأن لو لم يفز مرشحون تقدميون بمقاعد في البرلمان، حينها عملنا السياسي ايضاً سينحصر في منطق الفعل وردة–الفعل؛ لن يتغير شيء على الإطلاق. المشكلة ليست مشكلة النوايا الداخلية لأي فرد أو لأي جمعية، بل مدى صلابة البرنامج السياسي. مثلاً، فيما عصرنا هذا يفرض كون العمل الاشتراكي مرتبطاً بإقامة تحالف ضد رأس المال الاحتكاري (واللحظة التي نقول فيها بذلك، في بلد كولونيالي مثل بلدنا، فإننا بالضرورة أيضاً نشير إلى رأس المال الامبريالي)، أجدكم تكتفون بالعتب على

"ذوي الدخل العالي"، أو "أصحاب العمل" (وهي عبارة مضللة للغاية، ويجب التخلص منها تماماً)؛ فلا تسمون الأشياء بمسمياتها.

حالما نفهم ذلك، سنفهم ما ينبغي عمله. حالما نقول بإن رأس المال الاحتكاري الكولونيالي في تطوره لا بد، حتماً، أن يضر بالمصالح المباشرة للطبقات الشعبية سنفهم ما الإصلاحات، ما المطالب، التي يجب علينا العمل من أجلها. إصلاحٌ عن إصلاح يفرق. على سبيل المثال، لو طالبنا بضرورة توفير المستلزمات الإلكترونية والحاسوبية لطلبة المدارس الذين ليس في مقدورهم الحصول عليها في ظل انتشار وباء كورونا (على نفقة الدولة) فإننا سنكون قد دافعنا عن أحد المطالب اليومية والفورية للطبقات الشعبية (وهذا أمر قد يقوم به أي نائب أو أي جمعية أخرى، أو حتى قد تبادر به الحكومة نفسها)، ولكن إن طالبنا بضرورة إصلاح فوري لقوانين العمل الخاصة بالعمال الأجانب المهاجرين (وذلك يتضمن إصلاحاً في مفهوم المواطنة حقوقياً، ايّ إصلاحاً سياسياً أيضاً): توفير لهم النقابات، ونشرات تعبر عن لسان حالهم، تمثيلات سياسية، ضبط قانوني لساعات العمل الثمان، رفع أجورهم، إلخ؛ سنكون قد أضررنا، عبر "الإصلاح"، بالمصالح المباشرة لا لرأس المال الاحتكاري وحسب بل غير–الاحتكاري ايضاً. تصوروا، إذن، بأنكم قد ساويتم مدى أهمية إصلاحين يختلفان اختلافاً كلياً في محتواهما البنيوي؛ أو، إن صح التعبير، يختلفان اختلافاً كلياً في مدى "ثوريتهما".

البرنامج الاشتراكي كفيل في تحديد هذه التوجهات والإصلاحات بالتحديد. الآن أسمع من الجهة الأخرى استنكارات: "نتفق معك! لكن كيف يمُكن لهذا البرنامج الاشتراكي أن يعمل بشكل سليم إن لم نكن قد وصلنا إلى الديموقراطية التامة بعد؟". حسناً! هؤلاء مقدسو الديموقراطية الليبرالية يوقعون أنفسهم في شرك ما: ما دامت الديموقراطية ليست تامة في البحرين، إذن – حسبهم– لا طائل من العمل في المؤسسات شبه–الديموقراطية. تخيلوا لو كنا أمام لينين في 1921 وقلنا له، أربع سنوات بعد ثورة أكتوبر، بإن مشاركة البلاشفة في الدوما لم يكن مهماً لأن الديموقراطية الروسية حينها لم تكن تامة. تخيلوا ذلك فقط! كم سينهال علينا بنقده اللاذع وكم سيتهمنا لا بالانتهازية وحسب، بل الليبرالية؛ وهذا بالضبط ما قاله للمناشفة الذين وقعوا كلياً تحت سطوة الليبرالية. ليس بوسع أحد المزايدة أمام قامة مثل لينين، ونحن جميعنا لا شيء سوى نقطة في محيطه، ولا المزايدة أمام روزا لكسمبورغ حين قالت: ((تمثل الانتخابات وسيلة جديدة للصراع. أما أنتم، فأنتم قابعون في أفكاركم القديمة، إذ إنكم لا تلاحظون سوى كلمة "امبراطوري" من عبارة: البرلمان الألماني الامبراطوري. فلا تتخيلون أي إمكانية لاستعمال البرلمان بروح ثورية... نحن بحاجة إلى شكل مطور للراديكالية، بدلاً من فجاجة منطق "إما وإما". بلا شك، هذا المنطق الفج مريح أكثر، ولكنه لا يعدو كونه تبسيطاً الذي يحول دون تعليم وتنوير الجماهير.))

إننا نعلم (كما كانت لوكسمبورغ تعلم ذلك بشأن البرلمان الامبراطوري) بأننا أمام برلمان ليس ديموقراطياً بالمعنى الكامل للكلمة، ولن يكون كذلك في أي وقت قريب. لكن هل سينكر أي أحد بأن البرلمان، رغم هذه النواقص، هو المكان المناسب لإظهار هذه الحقيقة للجماهير؛ لإظهار حقيقة أن البرلمان نفسه ليس ديموقراطياً بالكامل؟ أهناك طريقة أدهى من الدخول للبرلمان وكشف نواقصه للجماهير من الداخل؟ والبرنامج الاشتراكي المنشود لا بد أن يعمل بلا هوادة ضد هذه النزعة.

أكرر: إن وجود البرنامج الاشتراكي هو شرط توعية الجماهير لا العكس. إن اليسار الليبرالي لا يتخيل إمكانية ذلك لأنه يريد الديموقراطية الليبرالية أن توجد بشكلها الكامل أولاً؛ وذلك لأنه يقع كلياً تحت سطوة العمل العلني الليبرالي، ولا يتخيل عملاً سياسياً خارجاً عن البرلمان. بينما أنتم تجدون بأن العمل في أدنى مستويات الديموقراطية هو كاف لتعميقها، وتكتفون فقط بالعمل البرلماني كما لو كان شيئاً مقدساً (وهذا بالضبط معنى القمائة البرلمانية)، وهذه الفكرة بحد ذاتها مغلوطة؛ إذ بينتُ بأن الجهاز المسيطر ليس الجهاز البرلماني. القضية ليست قضية عما إذا كان البرلمان ديموقراطياً بشكل كامل أم لا، وبلا شك سيكون علينا أن نطالب دائماً بتعميق الديموقراطية والحقوق السياسية عامة، بل قضية كيف يمكن توعية الجماهير ببرنامج اشتراكي – وضرورته– عبر البرلمان وخارج البرلمان في مثل الوقت؛ بتوعية الجماهير بالأساس الطبقي وراء معاناتها، بحقيقة صراعها الطبقي مع تنامي رأس المال الاحتكاري.

يجب على البرنامج الاشتراكي، إذن، أن يحدد بوضوح، بلا أي مواربة، بأنه لا يدعو – في الأمد الطويل – للتحرير الاجتماعي للطبقة العاملة وحسب، بل كافة الطبقات الشعبية ايضاً؛ عبر تقويض الملكية الخاصة للوسائل الإنتاج، ايّ عبر تشريكها بالتحديد. وهذا لا يحصل إلا حين يكون القرار السياسي متركز في يد الممثلين الشعبيين في المجالس الشعبية. حصول ذلك يؤدي إلى فك–الربط البنيوي بالمنظومة الامبريالية ككل، بما إن أبنيتنا الاجتماعية هي أساساً كولونيالية.

لكن في الأمد القصير لا بد أن يقر هذا البرنامج بالأهمية القصوى لإقامة تحالف يساري أو شعبي ضد رأس المال الاحتكاري، ويتضمن ذلك خطوات اقتصادية وسياسية كبرى؛ مثل الصراع من أجل تطبيق مبدأ الضرائب التصاعدية (مثلاً، الضرائب الموضوعة على معدل الربح الرأسمالي، والعقار، والأرض الزراعية، وعلى الميراث، بدلاً من تلك الموضوعة على الاستهلاك الشعبي)، العمل على خفض الدين العام لا عبر الخصخصة بل عبر تطبيق تلك الضرائب التصاعدية وخفض النفقات الإضافية (التي تنتمي إلى، كما يطلق عليها الاقتصاديون، القطاع الثالث)، إلغاء الضرائب غير المباشرة التي تضر مباشرة بالمصالح اليومية للطبقات الشعبية، الصراع من أجل تثبيت قوانيناً حازمة لحماية العمالة الوافدة (خصوصاً فيما يتعلق بساعات العمل، ويوم العمل، وتطبيق نظام تأميني حقيقي، أو باختصار "قوانين موحدة للحد الأدنى للأجور"، بالإضافة إلى التمثيل السياسي والنقابي لها)، التشجيع الدائم لانفتاح سياسي وإعادة الحياة السياسية للجمعيات المعارضة كلها، والانفتاح الصحافي في البلد (الصحافة المعارضة) وذلك ينصب في مصلحة المشاركة الشعبية في النقاشات العامة (قضايا النسوية، والطائفية، والعرقية، البيئية، مناهضة–الامبريالية، إلخ).

وعلى الرغم أن الصحة والتعليم مجانيين في البحرين، إلا سيكون علينا أن ندعو إلى إصلاح حقيقي في النظام التعليمي والصحي، إذ إن التدني النوعي المستمر لهما يدفعان أساساً لتدني نوعية صحة وتعليم الفرد. هكذا، خصخصة هذين النظامين لن يحصل عبر إلغاء مجانية التعليم والصحة، بل عبر المنافسة في النوعية: ما بين القطاع العام والخاص (وذلك سيدفع الطبقات الشعبية، في الحالات القصوى، نحو القطاعات الصحية الخاصة للعلاج).

سيعذر القارئ نسقيتي وتسرعي، إذ إن ليس واجب هذا المقال، ولا واجب كاتب المقال، أن يذكر تفاصيل أي برنامج كان؛ فهذا العمل لهو عمل جمعي. هكذا، لا يعمل البرنامج على السياسات الاشتراكية وحسب، ايّ عبر التوعية الاشتراكية، بل على التوعية السياسية للطبقات الشعبية بضرورة الصراع ضد رأس المال الاحتكاري. أنا أقول رأس المال الاحتكاري ولم أذكر شيئاً حول رأس المال الامبريالي لأنني افترض بأن للاثنين علاقة بنيوية ببعضهما البعض، ولكن ليس هذا المقال المكان المناسب لشرح وتفصيل هذه القضية المطولة. إنني أكتبُ هذا المقال ليس لأن لدي حلاً جاهزاً لما ينبغي القيام به، بل لأنني أعي بوضوح ما لا ينبغي القيام به. سيكون على القراء أن يفكروا لأنفسهم حول ضرورة البرنامج الاشتراكي، ولديهم خياران لا ثالث بينهما: إما يبقيان في الحالة الراكدة الراهنة، البيروقراطية الحزبية (أو البيروقراطية المركزية حسب تعبير غرامشي)، الجمود العقائدي، وإما أن يجرؤا على العمل الجاد، والنشاط رغم صعوبة الحركة، الماركسية الخلاقة بدلاً من ماركسية الكتب الأكاديمية. في كل الأحوال، حباً لله، اختاروا شيئاً ولا تقفوا صامتين. وبكلمات الشاعر اليوناني اليساري مانولس آناغنوستاكس:

لستُ أدعوكم أن تكفوا عن العيش
ولا أتطفل على حياتكم اليومية
ولا أمنع عنكم صحفكم المحببة
ولا أكتم مناقشاتكم في صالونات الحلاقة
أنني أطلب منكم شيئاً واحداً، كلمة واحدة:
هل أنتم مع أم ضد؟
فكروا في الأمر ملياً، وسأكون في انتظاركم.

أبو الفعايل .. لن نقول وداعاً!

بمناسبة أربعينية الراحل العزيز الفنان سلمان زيمان عرض المنبر التقدمي فيلماً يسجل بعض مراحل ومحطات وإبداع وسجايا فناننا الراحل «بو سلام» من خلال الحديث مع شخصيات اقتربت منه كإنسان مناضل وفنان مبدع، سخر حياته للفن الملتزم عبر مسيرة فنية متميزة، في زمنٍ تراجع فيه الإبداع وتقلصت مساحة الفن الراقي الملتزم بقضايا الإنسان والوطن.

عبد النبي سلمان

آخر مرة ظهر فيها سلمان زيمان أمام الجمهور في احتفالية المنبر التقدمي بالذكرى ٦٥ لتأسيس جبهة التحرير الوطني في ١٥ فبراير ٢٠٢٠

أذكر جيداً كيف أبهرنا «بو سلام» بفنه وبصوته المميز مع بدء سطوع اسمه فنياً، وتحديداً في أوساط طلبة البحرين في الداخل والخارج نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات القرن الماضي، حينها كان وكنا طلاباً متوزعين في الجامعات ومعاهد الدراسة خارج الوطن، وفي بقع جغرافية متباعدة أحياناً حول عالمنا الواسع، الذي كان حينها يضج بصعود لافت للعديد من الحركات الوطنية والسياسية عربياً ودولياً، بمثل ما كان يضج بأفكار التنوير والتقدم، ويفرد مساحة مهمة لكوكبة من الفنانيين العرب الذين أبدعوا ودعموا قضية شعبنا الفلسطيني الصامد، وكان سلمان زيمان و«فرقة أجراس» في مقدمة هؤلاء المبدعين المتميزين.

اللافت أن فناننا الراحل «بو سلام» كان صعوده بداية كمحب وعاشق للأغنية اليمنية بما احتوته من تاريخ وعبق ومعانٍ وكلماتٍ وألحان مميزة لدينا نحن أهل الخليج عامة، إلا أن سلمان زيمان بما تشرّبه من فكر وقيم تقدمية ووطنية وقومية، كان قد استطاع أن يُوّظف بوعي إمكانياته الفنية وصوته القوي المميز لاحقاً، وبمعية «فرقة أجراس» التي أسسها مطلع الثمانينات مع مجموعة من إخوانه وأخواته ورفاق دربه، في خدمة القضية الفلسطينية والقضايا الوطنية والقومية، وعبراختياراته المميزة لقصائد شعراء كمحمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم وأبو القاسم الشابي وصلاح عبدالصبور وغيرهم من القامات الشعرية والأدبية والفنية الكبيرة، بالإضافة إلى قامات بحرينية وخليجية من بينهم علي عبد الله خليفة وإبراهيم بوهندي وعبدالحميد القائد وفتحية عجلان ومسفر الدوسري وغيرهم، وكانت جميعها مساهمات تعجّ بحب الأرض والوطن والقضية، وهكذا استمر مشواره الفني بزخم أكبر لاحقاً، حتى برز بعدها كوجه بين أهم الفنانين العربً الملتزمين بالفن الجاد وبقضايا الوطن والقضية الفلسطينية.

وإذ نحتفي بأربعينية الراحل العزيز، فإننا نحن أصدقاؤه ورفاق دربه، سنظل نستشعر وجوده بيننا بصوته وانتماءه وحبه لأرضه ووطنه ولقضايا أمته، وللكلمة الراقية وللمعاني الإنسانية النبيلة التي دافع عنها سلمان زيمان طيلة مشواره الفني الحافل، وبالطبع سنظل نستشعر وجوده الدافىء بيننا، ونحن نتابع تكالب قوى الشر على أمتنا وقضيتنا الأولى: القضية الفلسطينية، ومعاناة شعبنا العربي الفلسطيني في الداخل والشتات، في زمن تتهافت فيه أقلام مأجورة ووسائل إعلام وحكومات مندفعةً بسرعة البرق للإرتماء في أحضان عدو يتربص بأمتنا وبخيرات ومستقبل شعوبها وسط عالم يضَجّ بالتحولات الجارفة التي تنذر بعواقب وخيمة لا نعرفً مداها.

ويبدو أن «أبا سلام» الذي استعجل الرحيل، قد اصرّ أن يغادر دنيانا تاركاً لنا أن نعيش غصة توالي فراق الأحبة والسقوط المدوي لمسلمات وقيم ومبادىء وأخلاقيات طالما تمسكنا وسنظل متمسكين بها، وفاءً لضمائرنا التي ترفض السقوط، واحتراماً للراحلين ممن حملوا مشاعل الحرية والتنوير وقضايا الإنسان، كما حملوا أوطانهم وقضايا شعوبهم وهم القابضون على الجمر في زمن السقوط والخيبات.

في أربعينية راحلنا العزيز بو سلام نقول له: نم قرير العين، وستبقى رسالتك وأفكارك ومبادؤك الوطنية والإنسانية التي ضحيت وناضلت من أجلها مع المئات بل الآلاف من محبي الحرية والتقدم في وطنك وأمتك، وسيزهر عالمنا البائس حتماً مستذكراً بفخر كل الراحلين الأوفياء.

تنمية منزلية

هجر الناس المقاهي والنوادي والمنتزهات والتجمعات العائلية وكل مناسبات الاختلاط البشرية واقاموا في منازلهم – ربما – لفترة لم يشهدوها طوال حياتهم وذلك على اثر جائحة كورونا، بيد أن هذا المكوث الطويل في البيت والفراغ وقلة الأعمال وانعدام فرص التوظيف الرسمي والحر منذ فبراير الماضي، انتج قلة في الموارد المالية ووفرة من الوقت ومناخاً ملائماً لاستغلال المنازل واستثمار مساحاتها في الأعمال والهويات العديدة.

عصمت الموسوي

هذا المقال ليس مبنياً على الأرقام أو الإحصاءات، إنما على عدد من الملاحظات والمشاهدات والمتابعات الإلكترونية لعدد من المواقع المتخصصة في الزراعة وتنسيق الحدائق والاستزراع السمكي وتربية الطيور والدواجن والحيوانات وإقامة مناحل وخلايا النخل والاعمال الخشبية الجديدة وغيرها، وربما يصلح هذا المقال كنواة لتحقيق صحفي موسع ولدراسة شاملة لمعرفة حجم هذا الاقتصاد الجديد واثره على الدخل الوطني والاعمال المستجدة وغيره .

والواقع أن وراء كل عمل جديد قصة تشي بأن الحاجة هي أم الاختراع فعلاً، كما يقول المثل السائد، وسمعت من احد الشباب البحرينيين أنه اتجه إلى العمل الحر من منزله على اثر خسارته لوظيفته كمهندس مدني في عام 2011، إذ تخصص في تصنيع السماد العضوي والمبيدات الحشرية الطبيعية في منزله. آخر قال إنه بدأ العمل بعد حصوله على تقاعده المبكر فكان أن توسع في حديقته المنزلية، وأقام فيها ركناً لتصنيع كراسي الحدائق ومشتلاً تجارياً، وكثيرون تخرجوا من الجامعات وجلسوا على رصيف العطالة ينتظرون الوظيفة لسنوات دون طائل، فلم يجدو مفراً في النهاية من ابتكار مصادر لأرزاقهم غير الطرق المعتادة والتقليدية

أعرف كثيرين عادوا إلى هوايات سابقة هجروها اثناء الحجر الطوعي أو القسري، أو استجابة لقرار الحكومة بالعمل عن بعد تفادياً للاختلاط والتجمعات، وقد وجدوا فرصاً للتعلم والتدريب واكتساب مهارات جديدة بالمجان على وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة كالرسم والتصوير وأعمال الجبس، حتى اسقف المنازل والغرف المركونة والزوايا الصغيرة المهملة جرى استغلالها وتوظيفها في كثير من منازل أصحاب الدخل المحدود وتم تحويلها الى مساحات للرياضة على اثر اغلاق الصلات الرياضية العامة.

ولقد لعب الإنستجرام دوراً كبيراً في تعريف الجمهور بأعمال ومهارات الشباب الجدد وأفكارهم وابداعاتهم. قبل عدة أيام تعرفت إلى شابة بحرينية تعمل، هي وخطيبها، على إقامة الديكور وتزيين الغرف لمناسبات الافراح واستقبال المواليد الجدد، كلاهما يتجه إلى طالبي الخدمة بلا أدوات ولا معدات، يحملان هاتفهما وكمبيوترهما الخاص فحسب، الإنستجرام هو دكانهم ووسيلتهم للتفاعل والتعاطي مع الزبائن، وأما تلك المصورة الفوتوغرافية المتخصصة في تصوير أطباق الأكل للمطاعم والفنادق، فقد قامت بمنح متابعيها دورات مجانية للتصوير على الإنترنت فكسبت جمهورا جديدا ورواجا تجاريا ومزيدا من الخبرة في معرفة الأذواق المختلفة.

إن التنافس كبير وعلى أشدّه بين المبتكرين الجدد في سوق العمل الحالي للبقاء في السوق وتحقيق الاستدامة في العمل او الحرفة في زمن لم تعد فيه الوظيفة أمراً سهلاً، وذلك لن يتحقق دون الابداع وتقديم كل ما هو مختلف وجديد وبسعر تنافسي.

ونعلم أن العمل الافتراضي الإلكتروني أو من المنازل في أي قطاع ليس مجانياً، إلا للأسر المنتجة ولمشروع برنامج خطوة للمشروعات المنزلية الذي ترعاه وزارة التنمية، لكن تفرض الدولة رسوماً تعدّ قليلة نسبياً للسجلات التجارية الافتراضية، وذلك لحماية حقوق الطرفين المستهلك وصاحب المهنة معاً، وربما تساهلت الحكومة مؤخراً وبسبب تأثير أزمة كورونا على الاقتصاد مع بعض الأعمال والهوايات التي تحوّلت إلى مهن تجارية مُولدة للمال، وتدار عبر الانستجرام وبدون رسوم، من هنا تجيء أهمية اليقظة والوعي بالنسبة للمستهلك، وما يُطمئن أن جميع هذه المواقع خاضع للرقابة الإلكترونية الحكومية، حتى وان كانت مجانية خصوصا مع انتشار وازدياد هذه المواقع وعدم تقيّدها بأي شروط، وقد لا تخلو من الغش والاحتيال أو التحلل من المسؤولية عند وقوع التجاوزات.

وكل يوم أتلقى على هاتفي النقال مواقع عديدة لتخصصات وأعمال تتضمن أفكاراً من صنع شباب وشابات بحرينيات تقع في مناطق مغمورة وبعيدة وخارج الأسواق المعتادة التي تأثرت بشدة جراء المنافسة غير المتكافئة مع هذه الدكاكين الافتراضية المجانية، أسعد لإبداعهم وأعيد نشرها على أكبر نطاق من باب الدعم والتشجيع، وأتوجه الى محلاتهم مدفوعة بحب الاستطلاع والفضول الصحفي واكتشاف الجديد، مسترشدة بخدمة ال GPS (الجي بي اس) – نظام التموضع العالمي) للوصول إلى أماكنهم على أرض الواقع.

حقاً إنه عالم جديد ومختلف ولا يزال مفتوحاً على شتى الاحتمالات.

تحورات ومآل «الطبقة الوسطى»

درج استخدام مصطلح «الطبقة الوسطى» منذ ٢٥٠٠ عام تقريبا. استخدمه لأول مرة الأديب الإغريقي القديم يوريديس في عام ٤٢٠ ق.م. على لسان تيسيي، بطل مسرحية «الضارعات»، حين قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : الأغنياء الذين لا خير فيهم للمدينة، فجُلّ همهم أن يكتنزوا لأنفسهم، الفقراء والعامة، وهم خطرون لأن همهم استهداف الأغنياء، «.. وحدها الطبقة الوسطى هي عماد المدينة. فهي ممتثلة للقوانين والسلطة». أي أنه منذ ذلك الوقت تم التأكيد على سمتين للفئات الوسطى (الطبقة الوسطى): مطواعة فكرياً وسياسياً وممتثلة للقانون. وفي القرن التالي طوّر الفيلسوف العظيم أرسطو الفكرة، حين قال في كتابه «السياسة» إن «الدولة المكوّنة من الناس الوسط، ستمتلك أفضل بناء للدولة». وهذا ما جعل النظم الحاكمة تنظر إليها كسند على مر الأزمان.*

عبد الجليل النعيمي

لم يَستنِد استخدام مصطلح «الطبقة الوسطى» آنذاك إلى تعريف محدد لماهية الطبقة. وإذا ما جرى الحديث عنها كان يشار إلى مجموعات اجتماعية متعددة، غير متجانسة، تحتل في المجتمع الطبقي مكانة انتقالية بين الطبقات الرئيسية.

في ظروف الرأسمالية تشكلت الفئات الوسطى بالدرجة الأولى من صغار التجار والملاك والحرفيين والفلاحين، وخصوصا أصحاب المزارع، ومن ذوي المهن الحرة (أطباء، محامين، معلمين، صحفيين وغيرهم من المثقفين). وقد سمي هؤلاء بـ «الطبقة الوسطى التقليدية (القديمة)». وفي المرحلة الاحتكارية من الرأسمالية تزايد دور فئة الإداريين والمدراء ذوي الامتيازات والمستخدمين ذوي الأجور العالية – «الطبقة الوسطى الجديدة».

أول مرة أُستخدِم فيها مصطلح «الطبقة الوسطى» في التصنيف الرسمي وأُدْرِج في المعجم السياسي – الاجتماعي في العصر الراهن كانت في عام 1913، عندما أطلقت هيئة الإحصاء البريطانية تصنيف middle class على شرائح السكان الواقعة بين الطبقة المسيطرة والبروليتاريا. وقد جاء هذا في مواجهة المفهوم الماركسي الطبقي للتطور الاجتماعي والتعريف اللينيني المشهور للطبقات. ومنذ ذلك الوقت بالذات ينظر علم الاجتماع الغربي إلى "الطبقة المتوسطة" على أنها السند الرئيسي، الاقتصادي والسياسي، لاستقرار الدولة في تناغم مع تعاليم أرسطو.

في كتابه "المبادرة الكبرى" عرَّف ف. إ. لينين الطبقة الاجتماعية على أنها «مجموعة كبيرة من الناس تتميز بـالمكانة التي تحتلها في نظام الإنتاج الاجتماعي المحدد تاريخيا، بعلاقتها (في أغلب الأحيان محددة ومكرسة بالقوانين) بوسائل الإنتاج، بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، وبالتالي بأهمية نصيبها من الثروة الاجتماعية التي تحصل عليها، والطريقة التي تحصل عليها. الطبقات هي مجموعة من الناس، بإمكان طرف منها أن يستحوذ على نتائج عمل الطرف الآخر، وذلك نتيجة المكانة التي يحتلها كل طرف داخل بنية محددة للاقتصاد الاجتماعي». (1)

وعلى هذا الأساس يمكن فهم البرجوازية (بتفرعاتها) والبروليتاريا، بالضبط كما السادة والعبيد، والإقطاعيين والفلاحين (الأقنان) كطبقات اجتماعية وفق التعريف اللينيني. وفيما بين كل طبقتين رئيسيتين متناقضتين تتحرك فئات اجتماعية واسعة صعودا ونزولا. ورغم أن الطبقات الأساسية تظهر وتختفي في مسار التطور وتعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية، إلا أن الفئات الوسطى ظلت موجودة، وإن تغيرت تركيبتها ومحتواها في كل حقبة معينة.

وفي كل الأحوال يشمل مفهوم «الطبقة الوسطى» الدارج مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، وحتى طبقات بأكملها (كالبرجوازية الصغيرة)، التي تتميز بموقعها في المجتمع ودورها الاجتماعي ومصالحها الخاصة واتجاهات تطورها. يوجد من بينها أصحاب عمل ومستخدمون مأجورون، وأفراد ذوو دخول كبيرة جدا، أو أقل من متوسط أجر العمال المؤهلين، ناهيك عن تعدد مجالات أنشطتها الاجتماعية. نعم، هناك ما هو مشتَرك بين الفئات الوسطى : حراكها «الانتقالي» بالنسبة للطبقات الأساسية، ما يسمح بالنظر إليها كمجموعة بنيوية خاصة في المجتمع الرأسمالي. لكن ليس من أساس علمي، باعتقادنا، لاعتبارها طبقة اجتماعية واحدة. ولهذا فنحن نستخدم مصطلح «الطبقة الوسطى» مجازا ونضعه بين مزدوجين.

سُقتُ ما سبق، مدركا أنه يتعارض مع السائد في فهم غالبية الاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين وغيرهم من المثقفين في مجتمعنا لمفهوم «الطبقة الوسطى»، إذ يرون فيها طبقة في ذاتها ولذاتها وللمجتمع. وهذا ما كشفته النقاشات في مختلف المحافل، بما في ذلك مواد ومناقشات المنتدى الفكري السنوي الثالث للمنبر التقدمي 2017 «البنية الاجتماعية الطبقية في مجتمعات الخليج العربي... السمات والتحولات". ولعلّ ذلك يعكس، إلى حد، «نجاح» الأيديولوجية البرجوازية في تشويه مفهوم الطبقات.

على اختلاف بنية وسلوكيات «الطبقة الوسطى» عبر الأزمان والحقب، فإننا سنتاولها هنا في الحقبة الراهنة من المرحلة الرأسمالية. ونعني بها تلك الممتدة طوال الأربعة عقود الماضية تحديدا. هذه «الطبقة الوسطى»، النسخة المطورة من «الطبقة الوسطى الجديدة» ، بخصائصها الاقتصادية الاجتماعية الثقافية السلوكية الاستهلاكية هي مجموعة بنيوية اجتماعية من نوع خاص، وهي الآن موضوع تحولات تاريخية كبرى، في إطار التحولات النوعية الحتمية الوشيكة للاقتصاد العالمي والمجتمعات (وهي موضوع حديث مستقل).

قبل ثمانينات القرن العشرين سادت النماذج الأيديولوجية المحافظة، المحافظة خصوصا تجاه الفائدة الربوية. «تغير الوضع فقط مع ظهور «الريغانية» (+ التاتشرية)، أي بدء التحفيز الإقراضي للطلب. وكما يقول الاقتصادي الروسي البارز ميخائيل خازن في مقالته «غروب الليبرالية»: «أصبح بالإمكان حل المسألة. سمحت هذه الآلية (المبنية على إعادة تمويل الدين الخاص) بإيجاد «طبقة وسطى» وطيدة، فاقت نصف إجمالي سكان البلاد، مُشَكِّلةً المرساة «الاجتماعية» التي أمَّنت نمط السلوك الاستهلاكي». (2)

هذه «الطبقة الوسطى» الاستهلاكية «تحوز ولا تحوز على الملكية»، تتصرف بسلوكية استهلاكية مفرطة، لكن كل ذلك تحت غطاء ورحمة المصارف. وبما أن هذه «الطبقة الوسطى» هي عماد استقرار الدولة حسب أرسطو، إذن فالدولة نفسها غدت «تحت حكم» المصارف أيضا. ولعل الحركة الاحتجاجية الشعبية الواسعة في لبنان محقة تماما حين نعتت الحكم «بحكم المصرف».

لقد صمم أيديولوجيو الليبرالية نموذجا جديدا للمجتمع يشمل كافة مناحي الحياة، بما فيها الثقافة والسلوك الاجتماعي والأخلاق. وبعد أن كُسِّرت تقاليد الأيديولوجيا المحافظة برز التيه الليبرالي بتطور «فجور القصور (الأثرياء)» إلى نمط في السلوك المجتمعي من عروض المثلية والقمار، إضافة إلى اشتداد النزعة الفردية وإهمال العائلة والتناسل، والغوص في الملذات واستسهال «العيب الاجتماعي» وغيرها من مظاهر السلوك الاستهلاكي التي تفشت في المجتمعات الرأسمالية «المتقدمة»، ومنها إلى بقية العالم. أما المعايير المادية «المضمونة» لمظهرية «الطبقة الوسطى» فقد ظلت السيارة الفارهة والمنزل الفخم على أمل السداد اللاحق، وكذلك السفر للراحة والاستجمام والحصول على خدمات العلاج والتعليم الخاصة وغير ذلك. غدا فرط الاستهلاك يتعدى قدرات المستهلك الخاصة.

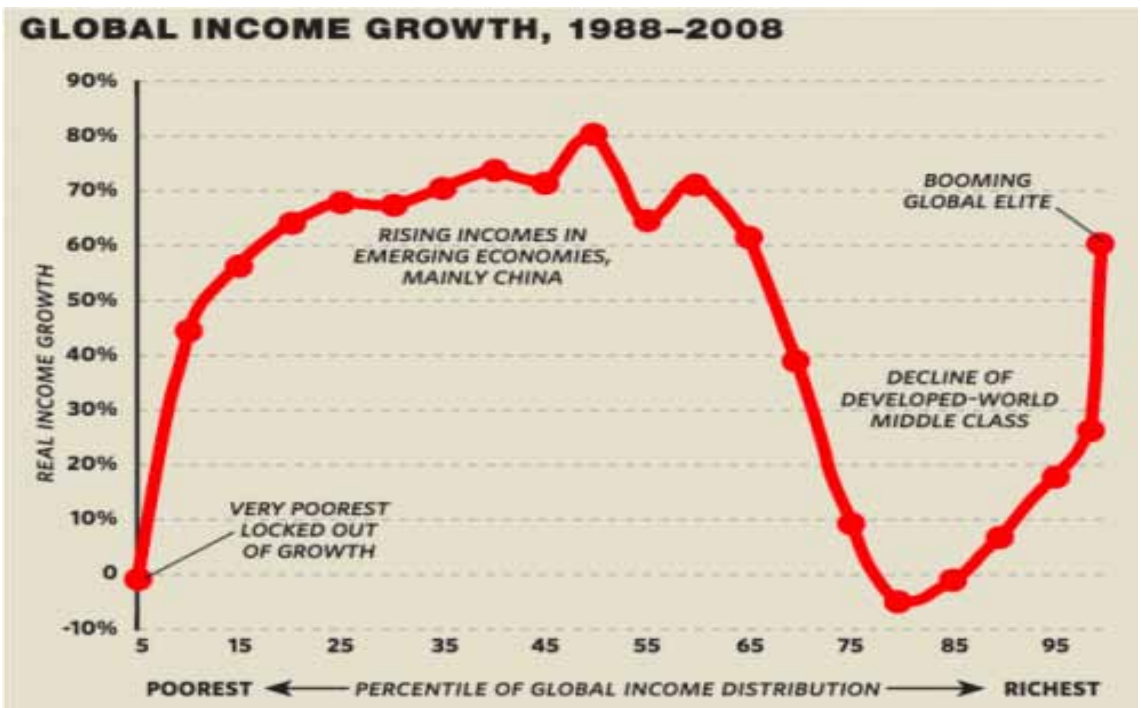

لكن هل كان يمكن «للطبقة الوسطى» الاستهلاكية أن تستمر هكذا، ظاهرة أبدية كما تراءى لكثيرين، أم هي تاريخية، محدودة في الزمان؟ المفكر العبقري كارل ماركس تنبأ لها أن تضمحل، وبالذات تحت تأثير أزمات القروض المصرفية والمصارف. وهنا أيضا كان لبعض مثقفينا رأي خاص في ذلك. في إحدى الندوات الصحفية تناول صديقنا الأستاذ إبراهيم شريف تنبؤ ماركس بالنقد قائلاً: «الطبقة الوسطى كانت مفيدة للاستقرار السياسي لنظام الحكم الرأسمالي لذلك لم تضمحل» (3). قيل هذا الكلام والأزمة الاقتصادية المالية العالمية في عز أوارها، وآثارها التدميرية بدت واضحة على «الطبقة الوسطى». بل أن إرهاصات ذلك التأثير بدأت منذ نهاية عام 2003 مع ظهور فقاعات الرهن العقاري.

نتطرق إلى ذلك لأنه يتعلق بصلب موضوعنا، وحيث الأهمية الفائقة لإدراك كنه العمليات النوعية الجارية في الاقتصاد العالمي ومجتمعات بلدان العالم، وما هي حبلى به من احتمالات، وإلى أين ستتطاير شظايا «الطبقة الوسطى» في المستقبل القريب، وانعكاسات ذلك في بلادنا ومنطقتنا التي آمل تناولها بشكل خاص لاحقا.

المشكلة في أن النفخ في استهلاك وتحسين معيشة «الطبقة الوسطى» على حساب القروض المدعومة بالتحفيز المالي (التسهيل الكمي، أي طبع المزيد والمزيد من الأوراق النقدية دون أن يقابلها إنتاج حقيقي)، اشتغل لعقود، باعثا على ازدهار «الطبقة الوسطى». لكنه لم يدر ببال المبهورين بالنمو العاصف «للطبقة الوسطى» أن آلية الإصدار النقدي المفرط لا يمكن أن تعمل إلى ما لا نهاية، ولا بد لساعة الحقيقة أن تدق. كان كامل النموذج مصمما ليس لسواد عيون «الطبقة الوسطى» ذاتها، بل لصالح سلطان رأس المال المالي. لقد عاظم النظام المالي العالمي حصته من مجمل الأرباح المحققة في الاقتصاد العالمي من 5٪ قبل بداية الثمانينات إلى 50٪ قبيل انفجار الأزمة المالية الاقتصادية 2008 – 2009. وهذه الأرباح لا توظف من أجل التنمية الحقيقية، بل لتنمية القطاع المالي نفسه، بمعنى آخر لتوليد مزيد من الفقاعات المؤدية إلى انهياره. وغدا القطاع المالي بمجمل أنشطته وعوائدها معيقا للإنتاج والتنمية عموما. ومع بداية هذا العام «كانت الدخول الحقيقية في أميركا بنفس مستوى عام 1957، وهي بعد الأزمة ستتدنى أكثر فأكثر» (4). إذن، فانهيار «الطبقة الوسطى» سيكون ناتجا عضويا لانهيار النظام المالي العالمي بنتيجة أزمته الحالية.

هذا ما يحصل بالفعل «للطبقة الوسطى» الآن ومنذ زمن. ولنستعرضه في مثال «منحنى الفيل» الشهير (منحنى بياني يشبه الفيل في مظهره العام) الذي رسمه الاقتصادي المعروف برانكو ميلانوفيتش، خبير البنك الدولي، الذي قارن عدم المساواة في الدخل للفئات الاجتماعية بين عامي 1988 و2008 على أساس تحليل البيانات الكبرى (big data). وهو يشير إلى أن معدل الزيادة في نمو دخل الشريحة السفلى من "الطبقة الوسطى" في الدول المتقدمة استقر عند الصفر، أي توقف (أنظر الرسم البياني). الاستثناءان الوحيدان حتى ما قبل وضع جائحة كورونا – نمو "الطبقة الوسطى" في كل من الصين الاشتراكية والهند، التي لا يزال اقتصادها لم يُركّب بعد على الليبرالية الجديدة المتوحشة.

مؤلف كتاب "رأس المال في القرن 21" الذي أحدث ضجة عالمية منذ سنوات، الاقتصادي الفرنسي الشهير توماس بيكيتي، وإن اختلف مع ك. ماركس حول محدودية الرأسمالية تاريخيا، إلا أنه اتفق معه في موضوعة تآكل "الطبقة الوسطى". ووصف بكيتي نتائج منحنى فيل ميلانوفيتش أنها «تبدو أروع كثيرا من الأفكار التي تم اقتراحها في البداية. فالفيل أصبح أشبه بالماموث». والماموث فيل ضخم منقرض عاش، بالمناسبة، في أوروبا الوسطى قبل مليون عام.

نود أن نشير إلى حقيقة هامة أيضاً: إن فضلاً كبيراً في تعزز مكانة «الطبقة الوسطى» في الدول الرأسمالية، حتى قبل «الريغانية»، كان بنتيجة وجود الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأخرى وإنجازاتها في المنافسة العالمية بين الاشتراكية والرأسمالية. هذا أجبر البرجوازية على فتح الشركات للمساهمة وتقاسم الأرباح. لكن استمرار هذا التعزيز ممكن فقط مع إعادة الإنتاج الموسع والضخ الإقراضي. الآن كل هذه العوامل مفتقدة!!

وهكذا، شيئا فشيئا تتبخر أمام ناظرينا أسطورة الإنسان الاقتصادي – الرجل العاقل، الذي يعيش بدافع وحيد يتمثل في تعظيم رفاهيته الشخصية. ستضمحل «الطبقة الوسطى» ليس فقط بفعل توقف آلة الإصدار النقدي – آلية عمل النموذج الليبرالي (الجديد) عن الاستمرار، بل وأيضا لأن «النخبة العالمية» لم تعد بحاجة إلى الدور الاقتصادي الاجتماعي «للطبقة الوسطى الاستهلاكية» كمحرك لنموذج آفل تاريخيا. ومع انهيار كامل النموذج لن يستمر المال، كما كان، مصدر السلطة بالنسبة «للنخبة العالمية». سيوجد مصدر السلطة بالنسبة لها في مكان آخر – في الذكاء الاصطناعي، الذي سيشكل من وجهة نظر «النخبة العالمية» جوهر النموذج الجديد لما بعد انهيار الهرم المالي العالمي القائم على الدولار الأميركي. فعن طريقه تنوي «النخبة العالمية» ممارسة سلطتها على شعوب العالم وتوجيهه. هل هكذا سيكون الأمر حقا، أم أن لإرادة الشعوب، ممثلة بقوى الخير والتقدم رأي آخر سيغلب ويفرض نماذجه الخاصة للتطور البشري اللاحق ؟ هذه مسألة نضالية قادمة أمام البشرية التقدمية.

الهوامش:

*استعنت بإثنين من أعمدة مسرحنا البحريني، الفنانين خليفة العريفي وحسن عبد الرحيم مشكورين، للإستنارة من تاريخ المسرح العالمي.

(1) ف. إ. لينين. مجموعة المؤلفات الكاملة باللغة الروسية، م. 39، ص. 15.

(2) http://worldcrisis.ru/crisis/3295754?utm-source=subscr&utm-medium=mail&utm-campaign=best

(3) صحيفة»الوقت»، 7 يوليو 2009.

(4) م. خازن، الجريدة البرلمانية .http://mospravda./143347/25/02/2020/ru

صناعة المعلّم ...
رؤية إنسانية وثقافة تكنولوجية

عندما يخطىء سائق السيارة قد ينتج عنه حادث مروري، وعندما يخطىء المهندس فلربما يؤدي إلى انهيار المبنى، وعندما يخطأ الطبيب قد ينجم عنه موت المريض، وعندما يخطىء المصرفي قد يتسبب في كارثة مالية، وهكذا عندما يخطىء السياسي قد تحدث ثورة عارمة في البلد، وعندما يخطىء حارس المرمى قد يؤدي إلى خسارة الفريق ... إلخ، ولكن دعونا نتخيل معًا كيف تبدو الصورة حينما يخطىء المعلم؟
الجواب: فساد أمة!

د. فاضل حبيب

دعونا ننطلق من هذه المقدمة لنؤكد على حاجتنا الملحة لمشروع تنويري يحمل عنوان «صناعة المعلم» للقرن الحادي والعشرين. فيا ترى أيّ معلم نحتاجه؟ هل هو ذاك المـزوّد بالثقافة التكنولوجية فقط؟! أم ذاك الذي انفتح على الثقافة التكنولوجية وتمكّن من توظيفها بذكاء في تدريب الطلبة على اكتساب المهارات والاتجاهات السليمة والقيم العليا في الحياة؟

سأسلط الضوء على بعض المفاهيم لتتضح الصورة أكثر عند الحديث عن صناعة المعلم للقرن الحادي والعشرين.

أولًا ـ التعليم والانتقال من ثقافة الإيداع إلى ثقافة الإبداع:

ثمة موضوع لطالما كان ولا يزال يؤرقني كثيرًا، سواءً عندما كنتُ معلمًا أو الآن بصفتي ولي أمر أتابع الشؤون الدراسية لأبنائي. ولا أخفي عليكم بأنني أتخيل واقع التعليم عند زيارتي لأي مصرف أو بنك، وهو ما عبر عنه المفكر التربوي البرازيلي باولو فريري بـ «التعليم المصرفي أو البنكي»، وأتساءل في نفسي: إلى متى ونحن مستغرقون في وحل التعليم المصرفي أو البنكي «ثقافة الإيداع»؟ أما آن الأوان للولوج إلى التعليم الإبداعي «ثقافة الإبداع»؟

للأسف الشديد، أنظمتنا التعليمية في الوطن العربي أشبه ما تكون بمصنع لإنتاج «العقول المعلَّبة». ربما الحالة هنا أشبه ما تكون بالسلع والمواد الغذائية الفاسدة التي تنتهي فترة صلاحيتها في غضون عام أو عامين مثلًا. إلا أن الخطورة تتمثل في جعل عقول الطلبة معلبة ومجمَّدة ومنتهية الصلاحية مدة اثني عشر عامًا (أي مدة المراحل التعليمية لكل طالب وطالبة).

ثانيًا ـ التعليم بين غبار الشهادات وحتمية المهارات:

ثمة موضوعٌ فرض نفسه مؤخرًا على المشهد التربوي والتعليمي، وهو «مهارات المعلم للقرن الحادي والعشرين»؛ بوصفه مرتكزًا أساسًا لتطوير التعليم وتحسين مخرجاته لتتلاءم مع متطلبات سوق العمل، وهو ما دفع بالرئيس الأميركي دونالد ترامب في شهر يونيو الماضي بالتوقيع على أمر تنفيذي بتوجيه التعليمات لفروع الحكومة الفدرالية، بالتركيز على المهارات بدلً الشهادات الجامعية في اختيار الموظفين الفدراليين.

ومع تنامي وتيرة التغيرات المستمرة والدراماتيكية التي يشهدها العالم، خصوصًا بعد جائحة كورونا (كوفيد ـ19)، فقد أصبح دور المعلم مهمًا جدًا لتيسير وتوجيه وتمكين الطلبة لاكتساب المهارات المطلوبة، بُغية الوصول إلى فردٍ قادرٍ على التعامل مع متطلبات المراحل اللاحقة لتخرجه من المدرسة؛ سواءً كانت متعلقة بمتابعة تعليمه العالي أم الانخراط في سوق العمل.

تم تحديد مهارات التعليم للقرن الحادي والعشرين والتي يتمحور حولها إطـار مراجعة أداء المدارس الحكومية والخاصة بمملكة البحرين الصادر عن هيئة جودة التعليم والتدريب في مملكة البحرين على النحو الآتي: 1ـ مهارة التفكير الناقد 2ـ مهارة التواصل والعمل الجماعي 3ـ مهارة الإبـداع وحلّ المشكلات 4ـ مهارة القيادة وصنع القرار 5ـ مهارة الريادة والمبادرة 6ـ مهارة التمكن اللغوي 7ـ مهارة لمواطنة المحلية والعالمية 8ـ مهارة الثقافة التكنولوجية.

ولعل المهارتين الأخيرتين (مهارة المواطنة المحلية والعالمية ومهارة الثقافة التكنولوجية) أكثر ارتباطًا بموضوع المقال.

فمهارة المواطنة المحلية والعالمية تعني: قدرة الطلبة على توجيه معارفهم وسلوكهم وقيمهم بمسئولية، وبما يعزز التقارب الفكري بين مكونات المجتمع المختلفة، ويرفع وعيهم بالتحديات العالمية، ويزيد من إسهاماتهم في بناء وتطوير وطنهم بشكل أساس، وتأصيل ممارسات الاستدامة البيئية، والعدالة الاجتماعية، والمساهمة في تكوين توجهات إيجابية نحو المشكلات العالمية، وتقبل الآخر بما يزيد من التقارب الثقافي العالمي.

وأما الثقافة التكنولوجية فتعني: قدرة الطلبة على استخدام التكنولوجيا وأدواتها بفاعلية؛ لصناعة المعلومات أو الوصول إليها، وإدارتها، وتفنيدها ونقدها، ونشرها، مع الدراية التامة بأثر المحتويات التكنولوجية على الفرد والمجتمع.

مثالٌ على ذلك: عندما يوظف الطلبةُ وسائل التواصل الاجتماعي في العملية التربوية والتعليمية.

بطبيعة الحال، ليس الهدف من استخدام التكنولوجيا في التعليم زيادة تحصيل الطلبة للمعلومات، وإنما زيادة قدرتهم وتمكنهم من استخدام المعلومات بأقل جهد وفي أقل وقت وأكثر متعة، فمسألة رقمنة التعليم في المدارس والجامعات تتطلب حتمية تمكين المعلم والمتعلم في بيئة تعلم ذكية.

مع بداية جائحة كورونا (كوفيد ـ19)، أصبحت الثقافة التكنولوجية ضرورة حتمية لا يمكن تجاهلها بالنسبة للمعلمين والمتعلمين وأولياء الأمور على حد سواء، كما أصبح التعلم عن بُعد هو الخيار الأسلم والأمثل نتيجة الظروف الصحية الراهنة، فلا توجد صفوف دراسية وإنما وسائل وتطبيقات التواصل الاجتماعي، كما حلّ البيت مكان المدرسة، وأصبح أولياء الأمور بشكل أو بآخر شركاء إلى حد

كبير مع المعلمين في العملية التعليمية التعلمية، مع تحفظنا على (بعض) الممارسات التي جعلت منهم متعلمين ويحلون الواجبات والتطبيقات بدلًا من أبنائهم، مما يستدعي التدخل بوضع أنظمة تقييم وتقويم صارمة تقيس بدقة أداء الطالب نفسه وليس ولي أمره أو أي شخص آخر ينتحل شخصية المتعلم.

(البعض) تطرف وذهب بعيدًا في مطالبته بإلغاء التعليم الحضوري إلى المدرسة حتى في مرحلة ما بعد كورونا، بحجة أن التعلم عن بُعد يفي بالغرض، ولكننا في الوقت الذي نميل إلى تبني الوسائل التقنية، إلا أننا نؤكد على أهمية التعليم المدرسي الانتظامي، خصوصًا لطلبة التعليم الأساسي (المرحلة الابتدائية)؛ لأن مهمة التعليم ليست فقط إدخال الطلبة في عالم المعلومات والمعرفة وتدريبهم على بعض المهارات المطلوبة في سوق العمل ـ كما يقول المفكر د.علي فخرو ـ وإنما المطلوب أكثر من ذلك بكثير، فالمدرسة يجب أن تكون أداة تغيير وتجديد ثقافي وشحذ وبناء التزامات وطنية وقومية وإنسانية. وهذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال عمليتي تفاعل إبداعي بين الطالب وزملائه، وبين الطالب ومعلمه، فالمعلم لا يستطيع أن يقوم بتلك المهمات من خلال التواصل الإلكتروني، وإنما في الأساس من خلال التفاعل الخلاق في الصف مع تلاميذه.

ثالثًا ـ التعليم حق أصيل من حقوق الإنسان:

التعليم حق أصيل من حقوق الإنسان، وهنا يأتي دور المعلم الإنسان في ترسيخ مبادئ حقوق الإنسان في الفضاء المدرسي، من خلال توظيف المبادئ وما يطلق عليها بالقيم المدرسية عبر التطبيقات والممارسات المدرسية اليومية من خلال الأنشطة الصفية واللاصفية. ويتلخص دور معلّم القرن الحادي والعشرين في الارتقاء بمنظومة التعليم وإيجاد واقع تعليمي عصري ومتطور وبرؤية إنسانية كونية، ليس فقط من خلال تزويد المتعلمين بمجموعة من المعارف والمعلومات، وإنما بتدريبهم على اكتساب المهارات والقيم الكونية.

زبدة القول، لا بد أن يقود مشروع صناعة المعلم للقرن الحادي والعشرين، المجتمع إلى التعلّم الحقيقي الذي هو حق أصيل من حقوق الإنسان، وذلك لن يتحقق من غير العدالة والمساواة وإتاحة فرص التعلّم الذكي للجميع بلا استثناء، ذلك أن التعليم التقليدي القائم على الحفظ والتكرار وحشو المعلومات هو الوجه الآخر لتعليم فاسد وثقافة الشهادات الورقية بلا مهارات؛ لأن بناء العقلية الناقدة للمتعلم هو أساس أي تغيير في التعليم، فالمشكلة ليست في محاولة تطوير التعليم، وإنما في قدرتنا على تفكيك منظومة التعليم الموروثة، وأهم تحديات تطوير التعليم هو استبدال ثقافة التمدرس النمطي بثقافة التعلم الحقيقي الذي يشبع فضول الطفل ويسهم في تنمية الشك الإيجابي لديه عبر توظيف التقنيات ووسائل التعليم المشوقة والحديثة.

منهجية هادي العلوي

أحمد السعيد

استفدت من منهجية هادي العلوي في دراساته الإسلامية، فأصبحت المصفاة التي استخدَمها في إرجاع النص لسياقه التاريخي مفرقا بين مراده في زمن النبي وما طرأ عليه من تفسير وتأويل أهل الفِرق والمذاهب وأهوائهم بعدها عالقة في ذهني، فكانت مصفاته مثل حائط صدّ أمام ما يرد علي من نصوص دينية تتخطى سياقها التاريخي والزماني، وأصبحتُ أشك في كل ما يرد علي من تأويل أهل المذاهب، أو التفاصيل الدقيقة التي ترويها الشخصيات التاريخية عما سيحدث بعد موتها.

يفكك هادي العلوي هذه النصوص فتجد أنها توضع بعد حدوث الحدث. فالنص لا يتخطى تاريخه إلا من خلال تأويل الجماعة التي يعيش النص معها، فتمطُّه إلى حقبتها التاريخيه وتأوله وفق سياقاتها لا سياقاته. وتقوم الجماعات بتأليف نصوص أخرى على لسان الموتى.

ففي كتابه "في السياسة الإسلامية" يقول في سبب نزول الآية 59 من سورة النساء "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول..." أن النبي بعث خالد بن الوليد في سرّية إلى حي من أحياء العرب وكان معه عمار بن ياسر، فسار خالد حتى إذا دنا إلى القوم سار ليلاً لكي يداهمهم عند الصباح، فأتاهم النذير فهربوا عن رجل كان قد أسلم. وانطلق الرجل حتى أتى عسكر خالد ودخل على عمار فقال: يا أبا اليقظان إني منكم أفنافعي أنت أو أهرب؟! فقال: أقِم. وأصبح خالد فأغار على القوم فلم يجد غير ذلك الرجل فأخذه وأخذ ماله، فأتاه عمار فقال: خل سبيل الرجل فإنه مسلم وقد أعطيته الأمان وأمرته بالمقام.

فقال خالد: أنت تجير علي وأنا الأمير؟ فقال نعم أنا أجير عليك وأنت الأمير. فكان بينهما كلام في ذلك فانصرفوا إلى النبي فأخبروه خبر الرجل فأجاز النبي أمان عمار ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه. وقد جاءت الآية لحسم النزاع ولتأكيد وجوب طاعة قائد السرية المكلف بقيادة جيش المسلمين في زمن النبي وهو المقصود بعبارة (أولي الأمر).

لكن بنظرة سريعة ومع تطور تاريخ الإسلام السياسي ونشوء الفرق والمدارس ثم المذاهب والطوائف تم تحوير المعنى المراد من "أولي الأمر" فهو الخليفة المسلم ومن بعده الحاكم المسلم فيما يخص علماء السنة، إنه واجب الطاعة وإن زنا وإن سرق حسب قول المرجئة. أما تفسير الشيعة فنجد اتفاق على كون أولي الأمر تدّل على الأئمة من بني هاشم، وأصبحت اليوم تطلق على من ينوب عنهم من المراجع المتفقهين في الدين.

وحدثنا في كتابه "من قاموس التراث" عن حديث الفرقة الناجية: ستفترق أمتي اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. وباختلاف تخريجاته. إلا أن النبي في عهده لم توجد هذه الفرق ولم يخبر عن فرقة ناجية. وكان هدف الإسلام كما جاء به النبي توحيد القبائل حول فكرة هي أوسع مما تتصارع عليه داخل دياناتها الوثنية: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا». فالنجاة بالوحدة لا الفرقة.

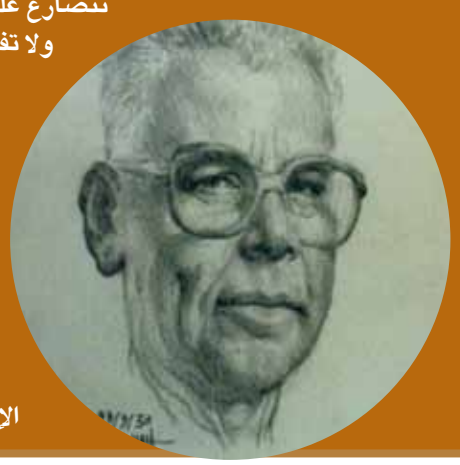

تكمن أهمية مشروع هادي العلوي في قراءة التراث أنه يمنح القارئ إستقلالية في التعامل مع التراث من خلال منهجيته التحليلية ونزاهته التي تبتعد عن تقديس الشخوص. وأفرد فصلا بعنوان الحسين في كربلا في كتابه "شخصيات غير قلقة في الإسلام" وهي ترجمة لثورة الحسين ومقتله وتاريخ نشأة المآتم ورثاء أهل البيت بعد ان قام بإزالة عوالق اللغط الديني عن الشخصية، بالإضافة إلى سعة المصادر والتوجهات التي ينفتح عليها القارئ في أعماله الخاصة بالدراسات الإسلامية وتاريخ السياسة في الإسلام.

الفلسفة مشروع لا يمكن أن يكتمل

الموت وما بعد يحاصران العالم (١-٣)

الفلسفة الكبيرة لاتموت، والفيلسوف الكبير لا يموت، فهناك شيء يبقى خالداً في كل فلسفة كبيرة، لأن الفلسفة ليست علماً، بل طريقة معينة لطرح المشكلات وللتفكير، والفيلسوف لا يكون فيلسوفاً إذا لم تجد في قوله قولاً تتوجه به إلى البشرية جمعاء، إلى كل إنسان بما هو إنسان. ومن العبث أن نجعل للفيلسوف انتماءً ضيقاً، فشرف الفلسفة يأبى أن نزجّها في الطرق الضيقة – الفلسفة ليست خبريات ما تلبث أن تفقد أهميتها بعد حين، هي طريقة معينة في تناول المشكلات التي يطرحها العقل البشري وفي إعادة طرحها، إنها طريقة مختلفة في التفكير، وعندما تتغير طريقتنا في التفكير يتغير معها كل شيء، إذ لا نعود نرى الأشياء كما كنا نراها من قبل، الفيلسوف ليس علامة، بل مبتكر طريقة جديدة، ولكل فيلسوف طريقة في التفكير.

عبدالله السعداوي

في كتاب (الفرق والتكرار) يقول دولوز: «إن تاريخ الفلسفة هو إعادة انتاج للفلسفة ذاتها»، وفي كتاب (جيل دولوز وتجديد الفلسفة) نقرأ مايلي: «تتضمن كل قراءة للفلاسفة قدراً كبيراً من الخيانة. وهي تتم من خلال وجهة نظر معينة، ويسعى دولوز من وراء هذه القراءة إلى توليد مولود جديد من ظهر الفيلسوف يشبهه لكن يختلف عنه. إنه أقرب إلى المسخ منه إلى مولود طبيعي وهذا ضروري لنتمكن من إدماج أفاهيمه في القول الفلسفي المعاصر.»

فالفلسفة في صيرورة دائمة «لا يؤمن دولوز بهويات ثابتة للأشياء ولا للفلاسفة. ولا يعتقد ان هم البحث عن الحقيقة هو ما يميز الفلسفة، لأن الفلسفة لا تعني بالصواب والخطأ، بل بالافت والبارز والهام من هنا عمد إلى البحث عما هو لافت وبارز وهام».

يقول: «ينبغي أن لا نبحث عمّا إذا كانت فكرةً ما صائبة أم خاطئة بل ينبغي أن نبحث عن فكرة أخرى مغايرة لمكان أخر، في مجال أخر، بحيث أن شيئاً ما يمر بين الاثنين، لا يكون في الأولى ولا في الأخرى».

فمفاهيم دولوز تتكرر في غالبيتها من كتاب لأخر، لكنها بصورة مختلفة في كل مرة، تبعاً للمسائل التي تعالجها، وتبعاً للأفق المتحرك الذي تنشأ فيه: «أصنع أفاهيمي وأعيد صنعها، وأمكنها انطلاقاً من أفق المتحرك، من مركز منزاح دائماً، من محيط متنقل دائماً، يكررها ويفرقها».

الفلسفة مشروع لا يمكن أن يكتمل أبداً.

يقول دولوز: في كتاب «منطق المعنى»: «أحاول أن أقول كيف ينتظم الفكر وفقاً لمحاور واتجاهات متشابهة: مثالاً الأفلاطونية والارتفاع اللذان سيوجهان الصورة التقليدية للفلسفة، فلاسفة ماقبل سقراط والعمق... الرواقيون ومنهم الجديد للسّطوح... بحسب الاتجاهات، لا نتكلم بالطريقة ذاتها، ولا نلقي المواد ذاتها: في الواقع، هذا ايضاً قضية لغة وأسلوب».

«المطلوب اذاً مسح الأرض بدلاً من النزول إلى أعماقها أو الصعود إلى السماء، فالأعمق هو الجلد، فالأعمق هو السطح وليس العمق. الحقيقة ليست في الأعماق ولا في السماء. انها على الأرض وتحديداً على سطحها».

وهذا مايجده دولوز عند رواقيين، إذ يقول: «إنه الاكتشاف الرواقي العظيم الموجه ضد فلاسفة ماقبل سقراط وضد افلاطون في نفس الوقت: واستقلال السطح، بشكل مستقل عن الارتفاع والعمق، ضد الارتفاع والعمق، اكتشاف الاحداث اللاجسمانية، المعنى أو الآثار، التي لا تختزل إلى الاجسام العميقة كما إلى الأماثيل العالية، كل ما يحصل، وكل ما يقال، يحصل ويقال على السطح».

كل أنواع الأفاهيم الفلسفية والشخصيات الأفهومية، فالأفاهيم الفلسفية هي أولاً موقعة وتبقى كذلك، جوهر ارسطو، كوجيتو ديكارت، منادة لايبنتس، شرط كانط، قوة شيلنغ، ديمومة برغسون. كل ابداع فريد، والأفهوم بوصفه ابداعاً فلسفياً خاصاً هو فرادة دائماً.

فالمبدأ الأول للفلسفة هو أن الكليات لا تشرح شيئاً، وعليها نفسها أن تشرح.

الفيلسوف يهتم بالمسألة الفلسفية أكثر مما يهتم بالإجابة عن الأسئلة، يهتم بالطريقة أكثر مما يهتم بالنتيجة، يهتم بالمنهج أكثر مما يهتم بما يؤدي إلى المنهج، الفلسفة لا تزودنا بقناعات جديدة، بل تسألنا عن الطريقة التي بها كوّنا قناعاتنا، انها طريقة معينة في التفكير حيث يعمد الفيلسوف إلى إعادة تقطيع الأشياء بطريقة مختلفة، غير مألوفة مما يؤدي إلى تغيير نظرتنا إلى الأمور.

فديكارت اكتشف حقل الذاتية في الفلسفة وكانط اكتشف حقلاً جديداً في الفلسفة هو حقل شروط الإمكان. ابتداع مشكلة جديدة في الفلسفة: تخلق فضاءً فكرياً جديداً وتسمح بإمكان القول وتجدده، ديكارت طرح المشكلة التالية: كيف يمكن لما هو ذاتي أن يقوّم ما هو موضوعي؟، أي كيف لي أن أصل إلى اليقين انطلاقاً مما أجده في داخلي من نور طبيعي؟

وهذه المشكلة الفلسفية الجديدة خلقت مناخاً فكرياً وفضاءً فلسفياً جديداً، يختلف عن ما كان موجوداً في القرون الوسطى حيث كانت تسود مشكلة العلاقة ين العقل والنقل، فالكوجيتو الديكارتي أو (الأنا افكر) الأفهوم الرئيسي في فلسفة ديكارت.

والشخصية الأفهومية هي الشخصية الحقيقية في الفلسفة، شخصية الأبله في فلسفة ديكارت وشخصية سقراط في فلسفة أفلاطون وشخصية زرادشت في فلسفة نيتشه. فكل فلسفة تجيب بطريقتها الخاصة والمختلفة عن السؤال التالي: ما معنى أن نفكر اليوم؟

ما التفكير؟ وهذا السؤال له علاقة بالصورة التي يقدّمها عن نفسه أي صورة الفكر؟ وهناك مرتبة أخيرة يسميها دولوز (الذوق الفلسفي) ومهمتها التوفيق بين مختلف المراتب والعناصرالأخرى.

فالفلسفة هي أن نفكر بطريقة مختلفة، أي أن نطرح طريقة مختلفة وجديدة في التفكير.

وفي رأي الكثيرين أن الفلسفة ختمت مع هيغل، خاتم الفلاسفة. والفلاسفة من بعده لن يكونوا إلا بمثابة رسل، لا جديد لديهم سوى اضاءة أو شرح بعض الجوانب الغامضة في فلسفة هيغل، لكن مع البقاء ضمن العباءة أو المظلّة الهيغلية.

مؤدى المذهب الهيغلي هو أن الكون كله، بجميع من فيه وما فيه، ما هو إلا تعبير عن «روح»

مطلق لا تحده حدوده، ولا تقيده قيود، مظاهر العالم التي ندركها بحواسنا، فلئن كان العالم المحسوس متطوراً في مراحل أدى إلى مراحل أعلى، فما ذلك إلا تطور في كشف «الروح المطلق» عن نفسه كشفاً متدرجاً، كأنما هو الشريط المنطوي يبسط نفسه بسطاً ليبدو منه ما قد كان مخفياً، وليس الكون على هذا المذهب بمختلف عن الكائن العضوي ذي رغبات وأهداف. ومعنى ذلك بعبارة واضحة هو أن هذه الأفراد والمفردات التي تصادفها من حولك لا تزيد على وسائل تختم الكل في تحقيقه لأغراضه.

فإذا جعل (عمانوئيل كانط) العالم شطرين، أحدهما حقيقي خارجي، لا نعرفه لأنه لا ينساق في أجهزتنا العقلية والآخر ظاهري، أي أنه الظواهر التي تلتقطها حواسنا بحكم استعداداتها الإدراكية، ثم تحيلها إلى مقولات العقل ينسجها مفهومات وقضايا، فإذا كان العالم الطبيعي الذي هو مجال الفكر العملي خلقناه لأنفسنا بعقولنا، أو بناه وصممه العقل الإنساني، فإن هذا العالم الطبيعي الذي اسلس للعقل قياده، ليس هو الحق، بل بقي من حقيقته جانب فوق متناول الانسان إذا اقتصر الانسان على عقله النظري.

جاء (هيغل) ليتمم هذه العملية – عملية تعقيل الطبيعة إلى الشوط الأخير، فإن مهمة الفلسفة هي أن تجعل العالم معقولاً بمعنى أنها تجري مجرى القوانين العقلية، لأن العالم والذات العاقلة التي تدركه حقيقة واحدة متناغمة ولكنه يختلف عن مقولة عمانوئيل كانط في رفضه أن يفرق بين الحقيقي والظاهري، بأن يقول كما قال كانط إن الأشياء في ذواتها ممتنعة عن ادراكنا، وإننا لا ندرك بالحواس والعقل إلا ظواهرها، يرفض هيغل هذه التثنية التي تجعل المعرفة العقلية مقتصرة على وجه من الكون دون وجه، قائلاً:

إن الكون كله معقول، لا فرق فيه بين باطن وظاهر، بل أن العالم الواقعي والفكر العقلي المنطقي اسمان على مدلول واحد، فالواقعية هي فكرتها، والفكرة هي واقعها، كل ما هنالك من فرق هو ان الجانب الواقعي بمثابة التعبير الذي يفصح عن فكرته العقلية.

يقول كانط: «نحن نملك إذاً ثلاث مفاهيم بوسعنا وفقها أن نعتبر شؤون البشر، لنا النوع البشري وتقدّمه، ولنا الانسان بوصفه كائناً أخلاقياً... ولنا البشر في صيغة الجمع... هذا التمييز بين هذه المفاهيم الثلاث هو شرط أولي وضروري لفهم فلسفة كانط أن النوع البشري أو الانساني هو موضوع القسم الثاني من نقد ملكة الحكم... أما الإنسان فهو موضوع نقد العقل المحض ونقد العقل العملي.. أما البشر في صيغة الجمع وهو اكتشاف خاص بملكة الحكم الاستطيقي».

إذاً هناك أهمية لدائرة الاستطيقا بوصفها ميداناً خاصاً في جميع البشر في تعددهم واختلاف انظمة تدبير الذائقة الجمالية بميزان معاً الجميل بما هو حقل شرعي يختص جميع البشر. والجميل خاص بالبشر باعتبارهم جمعاً، اما ميدان الجميل هو الميدان الوحيد لولادة الحرية، بوصفها تنبثق مباشرة من ما يسميه كانط اللذة بلا منفعة)

هذه العبارة سببت الاستياء والغضب لدى فلاسفة ومفكرين أمثال نيتشه وهيدغر وادورنو ودريدا. ولا يكون بوسعنا اذاً أن نشترك في الإنسانية المأمولة إلا متى صرنا أحراراً، أي مستقلين عن أشكال الوصايا التي تعاني منها شعوب العالم.

الجميل الكانطي كفيل بالوعد بمشترك الحرية ضد رعاية القصور الناتج عن الجبن والهواء والهوية والهاوية في كل أشكالها. وحكم التفكر منذ الفقرة الأولى لكتاب نقد ملكة الحكم تتعرف على قرار كانط الحاسم والذي يتعلق بضرورة الخروج من [أنا أعرف إلى أنا أتفكر أي من الحقيقة إلى الذوق ومن العقل الخالص إلى الشعور.

يقول كانط: (اننا من أجل أن نميز الشيء ان كان جميلاً أو غير جميل فإننا لا نعيد تمثل الشيء إلى الذهن من أجل المعرفة، بل اننا نعيده بالمخيلة إلى الذات وإلى الشعور باللذة أو الألم الخاصين بها. ليس حكم الذوق إذاً حكم معرفة أي هو حكم منطقي انما هو استطيقي، أي هو حكم ليس بوسع مبدأه المعين ان يكون شيئاً سوى مبدأ ذاتي)

وهنا يذهب كانط نحو ميدان استطيقيا الذوق بوصفها تقوم على نوع خاص من الأحكام لا ينتجها العقل النظري بل تنتجها المخيلة. والتفكر هي ملكة تأمل حر، لانفعي ولا مفهومي ولا غائي، ولا هو نظري ولا هو بالعملي، إنما ضرب من اليوطوبيا التي تسمح للشعور بأن يتدفق على نحو حيوي طليق تحت راية مايسميه كانط (شعوراً حيوياً) ولذلك فإن كتاب نقد ملكة الحكم يخلوا تماماً من استخدام الحقيقة كما ترى (حنة ارندت).

يقول كانط: في نقد ملكة الحكم (إن حكم الذوق لا يمكنه أن يكون أنانياً، لكن ينبغي أن يكون ضرورة ذا قيمة تعددية)، وفي آخر كتبه (الأنثروبولوجيا) الصادر في 1798 اعتبرالتعددية المبدأ الأساسي للإلتقاء من الأشكال الثلاثة للأنانية، أي الأنانية المنطقية والأخلاقية والأستطيقية، من أجل ادراك مقام المواطنة في العالم.

يقول كانط: (ليس بوسعنا أن نواجه الأنانية إلا بالتعددية، أي بطريقة التفكير التي نسلك وفقها لا بوصفنا أوصياء على العالم برمته في أنفسنا، وإنما بوصفنا مجرد مواطنين في العالم) وهذا يجعل كانط يغير من أسماء الإنسان داخل (نقد ملكة الحكم الاستطيقي) مرات عديدة من الإنسان والأنا والذات إلى (نحن) و(كل امرئ) و(أيٍ كان) أو (الآخر) و(الغير) و (كل أخر) و (الآخرين) و(الجميع)

كيف يمكن توفر الجميل على امكانيات الشعور بلذة كونية بالامفهوم وبلاموضوع في شعور شخصي محض!

لقد حاول فلاسفة كثر الخروج من السستام الهيغلي من أمثال (فويرباخ) الذي كان معاصراً لهيغل ومن جملة الوسطاء بين هيغل وماركس، وقد ألفّ كتاباً مهماً جداً تحت عنوان (جوهر المسيحية) كان له تأثير بالغ على المفكرين في ذلك الوقت.

وقد ذكر ماركس وإنجلز: (إننا كنا جميعاً من أتباع فويرباخ لمدة من الزمان، وطبعاً فإن ماركس بعد ذلك تجاوز مدرسة فويرباخ ولم يقبل بتحليله عن الدين المسيحي، وذهب إلى أن تحليل فويرباخ للمسيحية هو تحليل مفهومي وعلم نفسي، في حين أننا نحتاج إلى تحليل اقتصادي واجتماعي، فلا يكفي أن نظهر المسيحية بأنها وهمية أو خرافية، بل يجب البحث عن السبب في هذه الخرافة ولماذا توغلت إلى أذهان الناس وامتدت إلى وعيه، ولماذا نرى كل هؤلاء الأتباع المؤمنين والمتعصبين لهذه العقائد الخرافية، ومن هنا فإن ماركس في مقام نقد أفكار فويرباخ طرح احدى عشرة مقولة عرفت فيما بعد بمقولات فويرباخ، وتبين جوهر الأفكار التي طرحها ماركس حول الدين، والمجتمع ومعيشة الإنسان وبعض هذه المقولات تتحدث عن الفوارق بين العالم القديم والحديث.

يتحدث ماركس في الموضوع عن أن الفلاسفة قاموا حتى الآن بتفسير العالم، ولكنهم لم يتحدثوا عن تغييره. وهكذا يميز ماركس بين مقولتين: مقولة التفسير ومقولة التغيير، وقال: إن المفكرين القدماء وعلى الخصوص هيغل الذي وسع من الفلسفة الميتافيزيقية بشكل كبير، كانوا يهتمون بتفسير نظام العالم، فكانوا يريدون إزاحة الستار عن ضرورات الأمور، ويكشفون عن البنى التحتية والمواد الأولية التي بنى منها العالم والإنسان والتاريخ، فكانوا يؤكدون العناصر الضرورية في العالم والتاريخ، أو العناصر الثابتة وغير المتغيرة، لأنه لا يمكن تفسير نظام العالم بالعناصر الأمكان والعرضية، ويقول ماركس: إن منهج هؤلاء الفلاسفة والمفكرين في العالم القديم وإلى الآن كان بهذه الصورة، أي تفسير العالم، لكن المهم هو الحديث عن تغيير العالم، بمعنى أن الانسان منذ هذا الوقت فصاعداً بدأ يفكر بنمطٍ جديد وإرادة جديدة ناظراً إلى التغيير، فالإنسان من الآن فصاعداً يريد تغيير العالم بيده.

إن المفكرين والفلاسفة في الماضي كانوا متفرجين على نظام العالم والتاريخ، ولكننا نريد مفكرين ينزلون إلى ساحة الملعب ويشاركون في اللعبة، فنحن كما ردد ماركس: (لم نأت لنتفرج على مسرحية الوجود، بل جئنا لنشارك في هذه المسرحية ونلعب دوراً فيها، ولذلك فإن عصر التفسير قد ولى وجاء عصر التغيير، فالانسان الحديث غير قنوع) بل يقول: (مَن قال إن هذا العالم هو أفضل مايكون وأن نظامه هو أفضل نظام؟ فلعل هناك نظاماً أفضل من هذا النظام وعلينا السعي لتحقيقه على أرض الواقع.)

إذاً الفلسفة الماركسية هي فلسفة التغيير وليست التفسير والتحليل.

رأى ماركس أن المجتمعات كلها ماعدا الشيوعية تمرّ بصراع طبقي. إن التملك الخاص هو ديدن هذه المجتمعات، وبالتالي حاول المُلاك وأصحاب العمل ان يسيطروا على المجتمع وأن يرفدوا بأفكار وهمية تبريرية غايتهم منها أن تبقيهم في مكانتهم، فنشأت الأيديولوجيات كمبرر لهم، وأدى ذلك إلى أن يكون هناك اغتراب في المجتمع، وليس على الصعيد الاقتصادي فحسب بل على الصعيد السياسي والفكري، لاسيما الديني الذي أعطى قدسية كبيرة للمجتمع فضلاً عن أنه كان المموّل الرئيسي للطبقات المسيطرة.

وفي افتتاحية البيان الشيوعي يقول ماركس: (إن تاريخ المجتمعات كلها حتى يومنا هذا لهو تاريخ الصراع الطبقي، ذلك أن الحر والعبد، النبيل والعامي، السيد والخادم، المعلم والصانع، فإن المستغلين والمستغلين كانوا دائماً في مواجهة محتدمة تنتظم بصراع غير منقطع). وتاريخ المجتمع يتطور ويتحول من مرحلة إلى أخرى ويحكمها الصراع بين مالك الإنتاج، القوة المسيطرة، وبين العمال أو العبيد غير المسيطرين على الإنتاج، إذ يرى أن المجتمع مايحويه من نظم ومؤسسات لايمكن فهمه فهماً حقيقياً دون دراسة مادية تاريخية.

والأفكار الرئيسية لتطور المجتمع هي:

العامل المحدد للتطور التاريخي

العلاقة الجدلية بين قوة الانتاج وعلاقات الانتاج

نظرية القاعدة والهرم

نظرية (التركيبات الاجتماعية الاقتصادية الخمسة)

والحياة هي التي تحدد الوعي، وليس الوعي هو الذي يحدد الحياة.

والأهم في عمل ماركس ليس أنه وضع مخططاً عاماً عن المجتمع، إنما لكونه درس مجتمعاً مشخصاً محدداً بالزمان والمكان، المجتمع البرجوازي الرأسمالي محللاً تناقضاته الواقعية متابعاً تشوءه وازدهاره كاشفاً إليه سيره وعوامل سقوطه، وهذا المجتمع الذي ولد بعد المجتمع الزراعي لم ينهِ الفوارق الطبقية، بل زادت وكثرت مع ازدياد المصالح والمصانع والسوق التي توزع بها البضائع، وهذا الحال قد أدى إلى شرخ أكبر في المجتمع، فكبرت الفجوة بين المجتمع وازدادت الطبقية التي حافظت على وجودها الدولة وأصحاب رؤوس الأموال.

وكل المجتمعات تمر بصراع طبقي ماعدا الشيوعية التي لايكون فيها اغتصاب لعمل أو احتكار، بل على ماذا يكون الاحتكار إذا كان الانتاج بيد المجتمع كله.

يقول ماركس في مقدمة الأيدولوجية الألمانية»: (اصطنع البشر باستمرار حتى الوقت الحاضر تصورات خاطئة عن انفسهم وعن ماهيتهم وعن ما يجب ان يكونوه، ولقد نظموا علاقاتهم وفقاً لأفكارهم عن الله، والانسان العادي ولقد كبرت منتجات عقولهم هذه حتى هيمنت عليهم، فإذا هم الخالقون ينحنون أمام مخلوقاتهم، ألا فلنحررهم إذاً من الأوهام والأفكار والعقائد والكائنات الخيالية التي يرزحون تحت نيرها، ألا فلنتمرد على حكم هذه الأفكار).

لقد جاءت الثورة الروسية، في أكثر البلدان الرأسمالية تأخراً، أي لبلد لا يصلح للتطور مابعد الرأسمالي، بالمعنى الماركسي للكلمة، التي شهدت لتوها نمو أولي لنبتات الرأسمالية الصناعية الحديثة، على شكل جزر في المدن الكبرى الرئيسية كموسكو وسانت بطرسبرغ، ومدراء المصانع يستوردون من انجلترا، ويعملون في ظروف لم يتبلور فيها بعد حتى انضباط العمل المصنعي المعروف، ولم تمدّ الرأسمالية فيها بعد تأثيرها التنظيمي، الانتاج لأجل السوق، عقلنة الانتاج، الحساب الاقتصادي، انضباط العمل، إعادة الانتاج الموسع أو تأثيرها المؤسساتي، اتحادات الصناعيين، نقابات العمال المؤسسات القانونية لحماية الملكية الخاصة المستقلة من الدولة أو تأثيرها الثقافي، فكرة الفرد المستقل، التعاقد الحر، حرية السوق.

(يتبع).

الفلسفة وفن بساطة الحياة

جلال إبراهيم

الصورة النمطية للفلسفة أنها صعبة ومعقدة. أو أنها أفكار مجردة عقيمة لا تنفعُ كثيراً في الحياة. فما علاقة البساطة بالفلسفة في الحياة ؟ وما هي الحياة البسيطة؟ وهل بإمكان الفلسفة أن تُساهم في علاج مشكلاتنا النفسية والحياتية المختلفة؟

يعتقد البعض أن من أيسر الأمور أن تعيش حياة بسيطة! هذا اعتقاد خاطئ. لأن تحقيق ذلك يحتاج إلى جهد مُضني في مواجهة النفس، وفي الترفع عن الكثير من الملذات والشهوات، وفي مقاومة الرغبات الغير أساسية في الحياة.

وبالعودة إلى الأسئلة الثلاثة التي طرحناها، إذا ما بحثنا في تاريخ الفلسفة الطويل، نجد فلسفات ساهمت في تعقيد حياة الناس نظرياً وعملياً، وفلسفات أخرى تميزت باليسر والمرونة في مواجهة المشكلات والتغلب عليها.

ما الحياة البسيطة؟ يقول نيتشه "إن نمط الحياة البسيطة هدف بعيد للغاية بالنسبة لي، وسأنتظر حتى يأتي أُناس أكثر حكمة مني ليعثروا لنا عليه". بينما يلخص باحث الفلسفة المغربي سعيد ناشيد، مواصفات الحياة البسيطة على خمسة مقومات، استناداً إلى ما قاله فلاسفة فن العيش من أمثال: أفلاطون، أبيقور، جلال الدين الرومي، شوبنهاور، نيتشه... وهي كالتالي:

– حياة أعيشها بأقل ما يمكن من الشقاء والألم والأوهام، وبما يعنيه ذلك من مراعاة لكل ما يتعلق بأنظمة الحياة اليومية، بدءًا من النظام العذائي والصحي، وانتهاء بالنظام المعرفي والتواصلي والأخلاقي.

– حياة أتصالح فيها مع قدري الخاص.

– حياة أكون فيها كما أنا لا كما يريدني الآخرون أن أكون.

– حياة أبسط فيها سلطاني على نفسي، بحيث تكون انفعالاتي ومشاعري صادقة في التعبير عن القيم التي أعبر عنها وأدعو إليها.

– حياة أصنع فيها المتعة بأقل الأشياء، وأبدع السعادة والفرح بأبسط السبل.

ليست البساطة في الحياة أن نلبس ما هو زهيد الثمن ونأكل القليل من الطعام وحسب، بل وننظر للحياة بإيجابية وننفتح على مختلف الثقافات، وأن تغمرنا المحبة والسلام الداخليين اتجاه أنفسنا واتجاه البشر جميعاً. وأرفع أنواع البساطة عندما نملك القوة في المال أو المنصب أو المكانة الاجتماعية ونعيش باعتدال، لكن هذا النوع هو الأصعب، لأنه يحتاج إلى التخلي عن الطمع في تحصيل الأشياء غير الضرورية للعيش. ويحتاج إلى قيم رفيعة تجاه الطبيعة والبشر، وتجاه النفس.

في كتابه «التداوي بالفلسفة»، يطرح سعيد ناشيد السؤال التالي: هل تساعدنا الفلسفة على مواجهة صعوبات الحياة اليومية؟ الجواب هو نعم. لأن الفلسفة تساعدنا على إعادة التفكير في نمط تفكيرنا. وبالتالي تساعدنا على تحسين قدرتنا على العيش. فعندما يقوم التفكير النقدي بنزع السحر عن الأشياء فإنه يحمينا من خيبة الأمل، سواء تعلق الأمر بالتاريخ أو الحب أو الثورة أو السعادة أو الألم أو الموت، وبالتالي نكتسب القدرة على العيش بأقل ما يمكن من الآمال والأوهام.

لابد من الإشارة إلى أن دراسة الفلسفة حديثاً لم تعد توفر لدارسيها ذات القيم الأساسية المتمثلة في الحكمة والتأمل والتفلسف، وذلك يعود إلى الطابع التقني والنظري لتدريس الفلسفة. فالكثير من خريجي الفلسفة لا يمتلكون أكثر من التباهي بمعرفة الفلاسفة ونظرياتهم.

علينا أن نؤمن بأن الفلسفة مرشدنا إلى إعمال الفكر وإلى الفهم العميق للنفس الإنسانية، ومن خلالها نستطيع تنمية القدرة على التفكير، لا سيما التفكير النقدي. فليس دور الفلسفة أن تمنحنا القدرة على قراءة النصوص وحسب، بل دورها بالأساس أن تجعلنا قادرين على الحياة بصورة أرفع وأفضل.

في فكرة التقدم

مثلما أتت فكرةُ التّقدُّم تمثّل منطلقاً لسيرورة متّصلة الحلقات من وقائع التحوُّل، في العالم، شمِلت ميادينَ الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع، بدءاً من القرن التّاسع عشر في أوروبا؛ أتت ثمرةً تكثّف تحوّلات سابقة؛ أفضت إليها كفكرة عليا وناظمة كانت أوروبا نفسُها مسرحاً لها. ويمكن، من باب التّمثيل فقط، الإشارة السريعة إلى أظْهر تلك التحولات، في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر، من تلك التي أنجبت معتَقد التّقدّم في الوعي الإنسانيّ: الثّورة العلميّة، التي شهدت عليها ميادين الفلك والميكانيكا والهندسة والفيزياء، كانت أوّل تلك التحوُّلات؛ من حيث كشفت عن الإمكانات المذهلة التي يتيحُها تطبيق نتائج العلم ونظريّاته في الاقتصاد والاجتماع والحياة العامّة، والتي تَعِد بتحقيق تقدُّمٍ نوعيّ في الحياة الإنسانيّة، وتمكين البشريّة من تسخير أفضل للطّبيعة ومواردها.

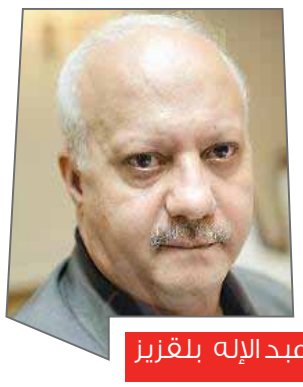

عبد الإله بلقزيز

وقد أتتِ الثّورةُ الصّناعيّة، في الأعقاب، تُشكّل مصداقاً للحقيقة الأولى بمقدار ما كانت فتوحاتُها ترجمةً ماديّةً لنتائج العلوم في حقل الإنتاج، في الوقت عينِه الذي حملَتْ مكتسباتُها وعوداً بتطوير شروط الحياة، وتغطية الحاجات الإنسانيّة، وتذليل ما كان صعباً وأُمْكَنَةِ ما كان في حكم المستحيل.

ولقد اقترنت الثّورتان معاً بثورة رديفة، شهد عليها مجال العلاقة بين السّياسة والدّين، وتجلّت في ما عُرف باسمَ الدَّنْيوة (العَلْمَنة أو اللّأكَيَة)؛ أي المُمَايَزَة بين المجال السّياسيّ والمجال الدّينيّ. وإذا كانت هذه «الدّنيوة» قد أعادت الكنيسة إلى ميدانها الرّوحي، وأخرجت السياسة من حيّز أملاكها، فهي حرّرت الدّولة والسّياسة من أيّ قيدٍ سوى الذي تتوافقُ الجماعةُ السّياسيّة على وضعه عقداً ناظماً لها و، بالتّالي، سمحت بتقدّم المجال السّياسيّ.

جَرَت الثّوراتُ الثّلاث تلك في حضن الدّولة الوطنيّة بمقدار ما أطلقت نتائجَها في كيّان الدّولة تلك: مزيداً من البَنْيَنَة والعَقْلَنَة والمَأسَسَة، ومزيداً من تمكينها من الموارد الماديّة، ومن عناصر القوّة القابلة للتّسخير في التّنميّة وتحقيق التّقدّم.

لم يكن القرن التّاسع عشر قد هَلّ حتّى كانت فكرةُ التّقدّم قد صارت معتقَداً جمعيّاً، تقاسَمَتْه تيّارات أيديولوجيّة وفكريّة مختلفة، خاصّةً: التياران الرّئيسان (اللّيبراليّ والاشتراكيّ). وجد الأوّل في الرّأسماليّة صهوته التي امتطاها في مشروعه الكونيّ؛ لغزو الطبيعة ثمّ لغزو العالم؛ ووجد الثاني في طبقة البروليتاريا – التي أنجبتها الصّناعة – قوّةً اجتماعيّة، عوّل عليها؛ لإعادة بناء عالم من التّقدّم جديد وخال من الاستغلال. والتّياران وإن اختلفا أيديولوجيّاً وتصارعا طويلاً، فقد نهلا من نفس النّبع المعرفيّ الذي تولّدت منه فكرةُ التّقدّم: من النّزعة التّطوُّرانيّة ذات الجذور الداروينيّة.

تاريخ القرنين الماضيّين وهذين العقدين من القرن الحالي هو، بالتّعريف، تاريخ التّقدُّم بما هو مشروع متحقق في ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية والتقانيّة، وتتمتع بثمراته المجتمعات الإنسانية في نواحي الأرض كافة. غير أن فرص الاستفادة من مكتسبات التقدم تتفاوت، في العالم، بتفاوت الدرة على اكتساب أدوات إنتاجه. والقدرة هذه غير متاحة للأمم والدول جميعها وإن كان الجامع بينها الاشتراك في حيازة منتوجاته. وبيان ذلك أن الفارق كبير بين من ينتج التقدم ومن يكتفي منه بمجرد استهلاكه. إنه الفارق بين البلدان المنتجة للعلم والتقانة والصناعة؛ وهي –عموماً – بلدان الغرب والشرق الآسيوي (الصناعي)، وبلدان الجنوب التي ما تزال كثرتها الكاثرة أسواقاً لاستقبال منتوجات التقدم الواردة من المصدر. ولا نعني بهذه المنتوجات الصناعية والتكنولوجية فحسب؛ بل الأفكار والمؤسسات والنظم السياسية والإدارية والنظريات العلمية والرؤى والبرامج، أي كل ما يدخل ضمن عُدّة مشروع التقدم، وما كان له الأثر الكبير في نقله من حيز الفكرة النظرية إلى رحاب الواقع المادي.

وما كانت فكرةُ التقدم بعيدة عن وعي النخب العربية، الفكرية والسياسية؛ بل هي تبلورت منذ وقت مبكر من القرن التاسع عشر. هي من وجه، مثلت إشكالية رئيسة في التفكير، وتمخض من التفكير فيها تراث نهضوي وأنواري عربي كبير، لم تنقطع حلقاته التّراكميّة منذ ذلك العهد؛ وهي، من جهة ثانية، الفكرة التي خِيض في تحقيقها المادي منذ المشروع التأسيسي لمحمد علي باشا في مصر، وما يزال يخاض فيها – بصور مختلفة – وإن أصاب تحقيقها كَبْوٌ وتكرار إخفاقات. ومع ذلك، لا مندوحة عن القول إنها وحدها السبيل إلى التاريخية؛ إلى الخروج من حقبة التأخر والتبعية وعقلية الريع والاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج والبناء والتنمية. وعلى ذلك، ما من بدٍّ من العودة، باستمرار، إلى أساسيات التقدم.

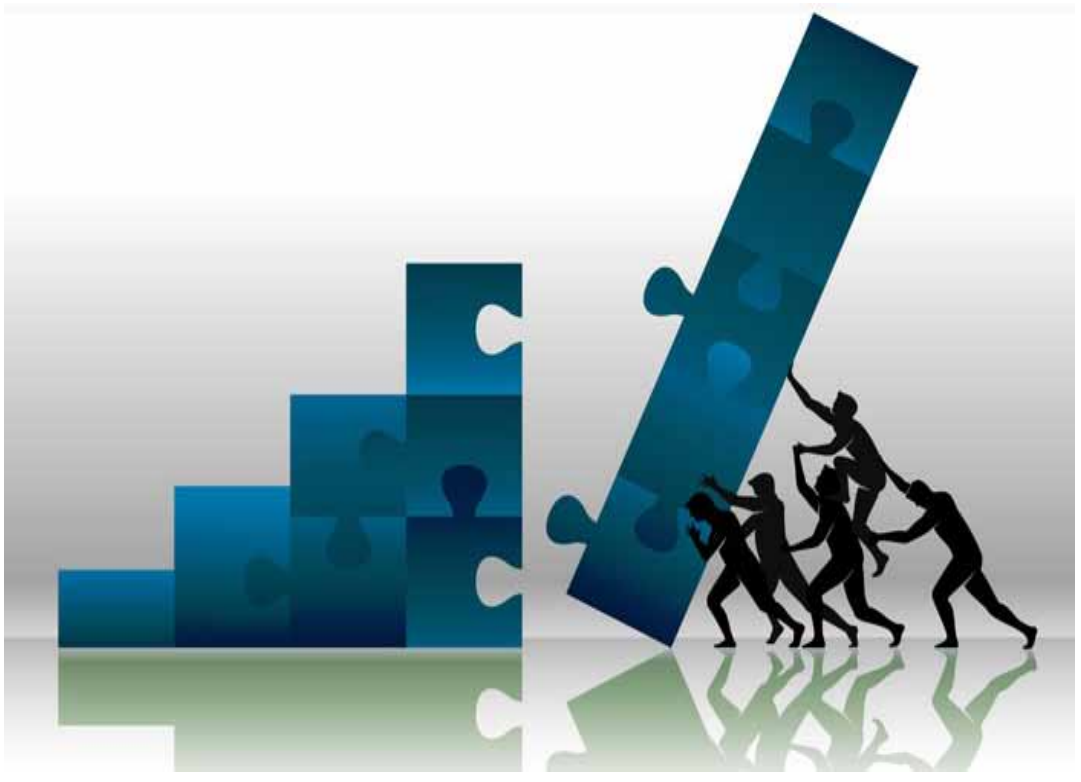

كيف عَلّمَ جيفارا كوبا مواجهة فايروس كورونا (١ - ٢)

بداية في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١، أخذ أرنستو «تشي» جيفارا إجازة من كُلية الطب لمدة تسع شهور ليُسافر بدراجته النارية عبر الأرجنتين، وتشيلي، والبيرو، وكولومبيا، وفينزويلا. وأحد أهدافه كان اكتساب الخبرة والتجربة العملية عن داء الجُذام (البرص). وفي ليلة ميلاده الرابع والعشرين، كان جيفارا في قرية San de Pablo في البيرو يسبح في النهر مع المُصابين بداء الجُذام. وسار بين ستمائة مُصاب بالجُذام في أكواخ الغابة يعتَنون بأنفُسهم بطريقتهم الخاصة.
لم يكن جيفارا ليكتفي لمجرد دراسة حالتهم والتعاطف معهم - أراد أن يكون معهم، يتعايش معهم ويفهم وجودهم. ترك إتصال جيفارا بالناس الفقراء والجياع أثناء مرضهم أثراً بالغاً عنده. فتصوّر دواءً جديداً، مع الأطباء الذين سيُعالجون أكبر عدد من الناس بالرعاية الوقائية والوعي العام بالنظافة. وبعد بضع سنوات، التحق جيفارا بحركة السادس والعشرين من تموز/يوليو لفيديل كاسترو كطبيب وكان من بين واحدٍ وثمانين رجُلاً على ظهر القارب غرانما Granma وهو يرسي على شواطئ كوبا في الثاني من شهر كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٥٦.

ترجمة:
غريب عوض

بقلم: Don Fitz *

الدواء الثوري

وبعد إنتصار الأول من كانون الثاني/يناير عام 1959 الذي إطاح بحكم باتيستا Fulgencio Batista، تضمّن الدستور الكوبي حُلم جيفار بالرعاية الطبية المجانية للجميع كحق من حقوق الإنسان. أدى فهم إخفاقات الأنظمة الإجتماعية المُنفصلة إلى قيام الحكومة الثورية ببناء المُستشفيات والعيادات في المناطق المحرومة من الجزيرة في نفس الوقت الذي بدأت فيه مُعالجة أزمات محو الأمية والعُنصرية والفقر والإسكان. أصلحت كوبا عياداتها في عام 1964 ومرة أُخرى في عام 1974 لربط المجتمعات والمرضى بشكل أفضل. وبحلول عام 1984، كانت كوبا قد أدخلت فُرَق المُمرضات والأطباء الذين يعيشون في الأحياء حيثُ كان لديهم مكاتب (إستشارية).

أصبحت الولايات المتحدة أكثر عدوانية من أي زمن مضى، لذلك في عام 1960 نظّم الكوبيون لجاناً للدفاع عن الثورة، للدفاع عن البلاد. استعدت اللجان لنقل المُسنين والمُعوقين والمرضى والمرضى العقليين إلى أعلى مُستوى إذا اقترب الإعصار، وبالتالي ربط الرعاية الصحية المحلية والشؤون الخارجية، وهي عِلاقة استمرت طوال تاريخ كوبا.

وبما أن ثورة كوبا الطبية تأسست على التوسع في الرعاية الطبية إلى ما وراء المُدن الرئيسية وإلى المجتمعات الريفية التي كانت في أمس الحاجة إليها، كانت خطوة قصيرة لمدّ تلك المُساعدة إلى دول أُخرى. بعثت حكومة الثورة بأطباء إلى تشيلي على أثر زلزال عام 1960، وفريقاً طبياً إلى الجزائر في عام 1963، التي كانت تناضل لنيل استقلالها من فرنسا. هذه الإجراءات مهدت الطريق للمُساعدة الطبية الكوبية الدولية، التي نمت خلال عقود والتي تشمل الآن المُساعدة في علاج جائحة كورونا COVID-19.

في أواخر ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن الماضي، هددت كارثتان وجود البلد في حد ذاته. توفي أول ضحية لمرض الإيدز في عام 1986. وفي كانون الأول/ديسمبر عام 1991، إنهار الإتحاد السوفيتي، مُنهياً دعمهُ السنوي لكوبا البالغ 5 مليارات دولار، مُعطلاً التجارة الدولية، ودفع الإقتصاد الكوبي إلى السقوط إلى الهاوية الذي أدى إلى تفاقم وباء الإيدز. ظهرت عاصفة مثالية لعدوى مرض الإيدز في الأفق. وجاء مُعدّل الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية في منطقة البحر الكاريبي في المرتبة الثانية بعد الجنوب الإفريقي، حيثُ أُصيب ثلث مليون كوبي في الآونه الأخيرة خلال الحروب الأنغولية.

أدى الحظر المفروض على الجزيرة إلى الحدّ من توفير الأدوية (بما في ذلك الأدوية الخاصة بفيروس نقص المناعة البشرية، والإيدز)، وجعل الأدوية الحالية باهظة الثمن، وعطلّ الهياكل الأساسية المالية المُستخدمة لشراء الأدوية. وفي حاجة ماسة إلى الأموال، فتحت كوبا بوابة السياحة، مما أدى إلى زيادة الجنس مُقابل المال.

لقد خفضت الحكومة الخدمات بشكل حاد في جميع المناحي ما عدا إثنين: التعليم والرعاية الصحية. طوّرت معاهد الأبحاث لديها اختبار التشخيص الخاص بفيروس نقص المناعة البشرية في كوبا بحلول عام 1987. وتمّ الإنتهاء من أكثر من إثني عشر مليون اختبار بحلول عام 1993. وبحلول عام 1990، عندما جاء المئليون إلى ضحايا فيروس نقص المناعة البشرية الأساسيين في الجزيرة، تمّ تحدي رهاب المثلية رسمياً في المدارس. وتم توفير الواقي الذكري مجاناً في مكاتب الأطباء، وعلى الرغم من التكلُفة، فقد تم توفير الأدوية المُضادة للفيروسات القهقرية.

أثمرت جهود كوبا الموحدة والمُخطط لها بشكل جيد للتغلب على فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز. في أوائل تسعينيات القرن الماضي، في نفس الوقت الذي كانت فيه كوبا لديها مائتان حالة إصابة بالإيدز، كان في مدينة نيويورك (نفس عدد سكان كوبا) ثلاثة وأربعون ألف حالة. على الرغم من إمتلاكها لجزء صغير فقط من ثروة وموارد الولايات المتحدة، فقد تغلبت كوبا على الآثار المُدمرة للحصار الأمريكي ونفذت برنامجاً للإيدز مُتفوقاً على برنامج الدولة الساعية إلى تدميرها. وخلال هذه الفترة الخاصة، تمتع الكوبيون بعمر أطول وانخفاض معدل الوفيات بين الأطفال الرُضع مُقارنة بالولايات المتحدة. لقد ألهمت كوبا المُعالجين في جميع أنحاء العالم للإعتقاد بأن دولة ذات رِعاية ونظام طبي مُتماسك يمكنها أن تزدهر، حتى في ظِل الصعوبات الهائلة.

جائحة كورونا COVID-19 تضربُ كوبا

التغلُب على نقص المناعة البشرية/الإيدز وأزمات الفترة الخاصة أعدّت كوبا لجائحة الكورونا COVID. ونظراً لإدراك كوبا بشدة الجائحة، عرفت أن لديها مسؤوليتين إثنتين لا تنفصلان: أن تعتني بنفسها ببرنامج شامل وأن تُشارك بِقُدُراتها على مُستوى العالم.

وقامت الحكومة على الفور بمُهمة أثبتت أنها صعبة للغاية في إقتصاد يُحركُهُ السوق، بتغيير مَعدات المصانع المُؤممة (تقوم عادة بتصنيع الزي المدرسي) لصناعة الأقنعة (الكمامات). وقد وفرت هذه إمدادات كثيرة لكوبا بحلول منتصف شهر نيسان/أبريل 2020، في حين أن الولايات المتحدة، بقدراتها الإنتاجية الهائلة، لا تزال تُعاني من نقص.

المُناقشات على أعلى المستويات في وزارة الصحة العامة الكوبية رسمت السياسة الوطنية. ستكون هناك حاجة إلى اختبار واسع لتحديد المُصابين. وسيتم حجر الأشخاص المُصابين بضمان حصولهم على الغذاء والمستلزمات الحياتية الضرورية الأُخرى. يمكن استخدام تتبع جهات الإتصال لتحديد الأشخاص الآخرين الذي قد يتعرضون للإصابة. سيحتاج الطاقم الطبي إلى الإنتقال من باب إلى آخر للتحقق من صحة كل مواطن. سيُعطى المستشارون إهتماماً خاصاً لجميع الأشخاص في الحي الذين قد يكونون عُرضة لمخاطر شديدة.

بحلول الثاني من آذار/مارس، كانت كوبا قد وضعت خطة قصة فيروس الكورونا للوقاية والسيطرة. وفي غضون أربعة أيام، تم توسة الخطة لتشمل قياس درجة الحرارة وربما عزل المُسافرين القادمين المُصابين. وقد حدثت هذه قبل أول تشخيص لحالة إصابة بالكورونا COVID-19 في كوبا في 11 مارس. كان لدى كوبا أول حالة وفاة مؤكدة لـ COVID-19 بحلول 22 مارس، عندما كانت هناك خمسٌ وثلاثون حالة مؤكدة، تمّ رصد ما يُقارب من ألف مريض في المستشفيات، وأكثر من ثلاثين ألف شخص تحت المُراقبة في البيت. وفي اليوم التالي تمّ منع دخول الأجانب غير المقيمين البلاد، والذي قضم قضمة عميقة في عائدات السياحة في البلاد.

كان ذلك هو اليوم الذي أصبح فيه الدفاع المدني الكوبي في

حالة تأهُب بإستجابة سريعة لفيروس كورونا COVID–19 وقررمجلس الدفاع في هافانا العاصمة بأن هُناك مشكلة خطيرة في ضاحية فيدادو Vedado في هافانا، المعروفة بأنها اكبر موطن للزوار الأجانب من غير السياح الذي هم أكثر عرضة لفيروس كورونا. وبحلول الثالث من نيسان/أبريل، تم إغلاق الضاحية. وكما شهدت مريم أنصارا Marriam Ansara، "أي فرد في حاجة إلى الدخول أو مغادرة الضاحية يجب أن يُثبت أنهُ تمّ فحصهُ وهو خالي من الإصابة بالفيروس." وقد تأكد الدفاع المدني بأن المخازن والصيدليات مُزودة بالمعدات اللازمة لمكافحة هذه الجائحة وأن جميع الناس قد تلقوا الفحوصات الطبية اللازمة.

كان لدى ضاحية Vedado ثمان حالات مؤكدة، وهذا كثير في منطقة صغيرة كهذه. وأراد مسؤولو الصحة الكوبيون أن يبقى الفيروس في مرحلة "الانتشار المحلي"، حيثُ يمكن تتبعهُ أثناء انتقاله من شخص إلى آخر. لقد سعوا لمنعه من الدخول إلى مرحلة "الانتشار المجتمعي"، حينما يكون التتبع غير مُمكن لأنهُ يخرج عن نطاق السيطرة. وبينما كان المتخصصون الصحيون في الولايات المتحدة يتوسلون للحصول على مُعدات الحماية الشخصية (PPE) وكان الفحص في الولايات المتحدة نادراً جداً لدرجة أن الناس كان عليهم طلب إجراء الفحص لهم (بدلاً من فحص العاملين الصحيين للمرضى المُصابين)، في حين كان لدى كوبا أدوات فحص فورية كافية لتتبع المُخالطين من الأشخاص الذين أصيبوا بالفيروس.

وخلال أواخر شهر آذار/مارس وأوائل شهر نيسان/أبريل، عملت المستشفيات الكوبية أيضاً على تغيير أنماط عملها للحد من انتشار العدوى. وذهب أطباء هافانا إلى مُستشفى سلفادور الليندي لمدة خمسة عشر يوماً، وأقاموا طوال الليل في منطقة مُخصصة للطاقم الطبي. ثم انتقلوا إلى منطقة مُنفصلة عن المرضى حيثُ عاشوا خمسة عشرة يوماً أُخرى وتمّ فحصهم قبل أن يعودوا إلى منازلهم. وظلوا في منازلهم لمدة خمسة عشر يوماً أُخرى، وتمّ فحصهم قبل أن يستأنفوا عملهم. فترة الخمس والأربعين يوماً هذه من العزل منعت أفراد الطاقم الطبي من جلب المرض إلى المجتمع من خلال رحلاتهم الطبية اليومية إلى العمل والعودة من العمل.

يمتد نظام الاستشارة الطبي إلى كل أُسرة في كوبا. وقد كلف الأطباء الإستشاريون طلاب السنوات الثالثة والرابعة والخامسة في كُليات الطب بالقيام بزيارة منازل مُحددة كل يوم. وكانت مهامهم تشمل الحصول على بيانات المسح من السُكان أو القيام بزيارات إضافية لِكبار السن والأطفال الرُضع وأولئك الذين يعانون من مشاكل في الجهاز التنفُسي. وتقوم هذه الزيارت بجمع معلومات الوقاية الطبية والتي يتم أخذها بعين الاعتبار بعد ذلك من قِبل من هم في أعلى مناصب صنع القرار في البلاد.

وعندما يأتي الطلاب ببياناتهم، يستخدم الأطباء قلماً أحمر لتحديد النقاط الساخنة التي تتطلب رِعاية إضافية. يجتمع أطباء الحي بشكل مُنتظم في العيادات للتحاور حول عمل كل واحد منهم، وما الذي اكتشفه، وما هي الإجراءات الجديدة التي تتبناها وزارة الصحة الكوبية، وما هو تأثير العمل المُكثف على الطاقم الطبي.

وبهذه الطريقة، يلعب كلُ مواطن كوبي وكُلُ عامل في مجال الرعاية الصحية، من العاملين في مكاتب أطباء الحي إلى أولئك الموجودين في أكثر معاهد الأبحاث شُهرةً، دوراً في تحديد السياسة الصحية. وفي الوقت الراهن لدى كوبا تسعةٌ وثمانون ألف طبيب، وأربعٌ وثمانون ألف مُمرضة، وتسعة آلاف طالب طب مُتوقع تخرجهم في كليات الطب في عام 2020. لن يتسامح الشعب الكوبي مع رئيس الدولة في تجاهل النصائح الطبية، وإطلاق الهراء، وتحديد السياسة على أساس ما سيكون أكثر ربحيةللشركات.

وافقت الحكومة الكوبية على التوزيع المجاني لدواء المُعالجة المُتجانسة لسكان هافانا ومُقاطعة بينار ديل ريو Pinar del Rio. وكانت الصحفية الكندية Susana Hurlich من بين الكثيرين الذين حصلوا على ذلك الدواء PrevengHo–Vir. وفي 8 نيسان/أبريل، جاءت الدكتورة ياسين، وهي واحدة من ثلاث أطباء في العيادة على بُعد مبنيين من منزلها، إلى الباب ومعها زُجاجة صغيرة من دواء PrevengHo–Vir وشرحت كيفية استخدامه. وتُحذر التعليمات من أنهُ يقوي جهاز المناعة ولكنهُ ليس بديلاً عن 2B Interferon Alpha، كما أنهُ ليس لِقاحاً. تعتقد الصحفية سوزانا هورليك Susana Hurlich أن هناك شيئاً مهماً يتعلق بنظام كوبا الصحي وهو بدلاً من أن يكون مُستويين، كما هو الحال في كثير من الأحيان في البُلدان الأُخرى، مع "الطب الكلاسيكي" من ناحية و "الطب البديل" من ناحية أخرى؛ لدى كوبا نظام صحي واحد يتضمن كل شيء. عندما تدرس لتصبح طبيباً، تتعرف أيضاً على المُعالجة المُتجانسة بجميع أشكالها."

تضامن دولي في فترة فيروس كورونا COVID–19

نموذج قوي: ربما كان العُنصر الأكثر أهمية في النزعة الدولية الطبية في كوبا خلال أزمة فيروس الكورونا COVID–19 هو استخدام عقود من الخبرة لخلق مثال على كيفية مواجهة بلد للفيروس بخطة رحيمة وكفؤة. استلهم مسؤولو الصحة العامة في جميع أنحاء العالم من الإجراءات الكوبية.

نقل المعرفة: حينما ازدادت بشكل كبير الفيروسات المُسببة لِمرض الإيبولا Ebola، الذي وجدَ بشكل أساسي في إفريقيا جنوب الصحراء الكُبرى، في خريف عام 2014، أصيب الناس في الكثير من دول العالم بالذُعر. وسُرعان ما أصيب أكثر من عشرين ألف شخص بالمرض، وتوفي أكثر من ثمانية آلاف شخص، وتزايدت المخاوف من أن يصل عدد الوفيات إلى مئات الآلاف. وقدّمت الولايات المتحدة دعماً عسكرياً؛ ودول أُخرى وعدت بمساعدات مالية. وكانت كوبا أول دولة تستجيب بأكثر ما تشتد الحاجة إليه: فقد أرسلت 103 ممرضة و62 طبيباً مُتطوعاً إلى سيراليون. وبما أن الكثير من الدول لا تعرف الاستجابة للمرض، قامت كوبا بتدريب المتطوعين من دول أُخرى في معهد Pedro Kourí of Tropical Medicine في هافانا. في المجموع، قامت كوبا بتعليم 13،000 فرداً أفريقي، و66،000 فرداً من أمريكا اللاتينية، و620 فرداً من منطقة الكاريبي كيفية علاج مرض الإيبولا دون أن يُصابوا بالعدوى. إن تبادل الفهم حول كيفية تنظيم النظام الصحي هو أعلى مستويات نقل المعرفة.

لقد حاولت فنزويلا تكرار الجوانب الأساسية للنموذج الصحي الكوبي على المستوى الوطني، الأمر الذي خدم فنزويلا جيداً في مكافحة مرض الكورونا COVID–19. وفي عام 2018، نظم سُكان إقليم Altos de Lidice سبعة مجالس محلية، بما في ذلك مجلس للصحة المجتمعية. قام أحد المواطنين بتوفير مساحة في منزله لمبادرة نظام الرعاية الصحية المجتمعية حتى يتمكن الدكتور Gutierrez من استخدامها كمكتب مؤقت له. يقوم بتنسيق عمليات جمع البيانات لتحديد السكان المُعرضين للخطر ويقوم بزيارة جميع المُقيمين في منازلهم لشرح كيفية تجنب الإصابة بفيروس كورونا COVID–19. المُمرضة del Valle Marquez وهي من انصار الرئيس هوغو تشافيز ساعدت في تنفيذ مهمة برنامج Barrio Adentro للرفاهية الاجتماعية في فنزويلا حينما وصل أول الأطباء الكوبيين. وهي تتذكر أن المواطنين لم يسبق أن شاهدوا طبيباً في مجتمعهم، ولكن عندما وصل الكوبيون "فتحنا أبوابُنا للأطباء، عاشوا معنا، وتناولوا الطعام معنا، وعملوا ببيننا."

قصص مثل هذه تتخلل فنزويلا. ونتيجة لبناء نظام من النوع الكوبي، أفادت قناة teleSUR التلفزيونية أنهُ بحلول الحادي عشر من نيسان/أبريل 2020، أجرت الحكومة الفنزويلية 181،335 اختباراً مُبكراً لتفاعل سلسلة polymerase في الوقت المناسب للحصول على أدنى مُعدل إصابة في أمريكا اللاتينية. كان لدى فنزويلا 6 إصابات فقط لكل مليون مواطن بينما كان لدى البرازيل المُجاورة 104 إصابة لكل مليون.

Don Fitz* هو من ضمن أعضاء هيئة تحرير مجلة Green Social Thought وكان مُرشح حزب الخُضر لحكم ولاية ميزوري لعام 2016. وكتابه "الرعاية الصحية الكوبية: الثورة المُستمرة" قادمٌ من مجلة Monthly Review.

مأزق الكاتب مع الـ«سوشيال ميديا»

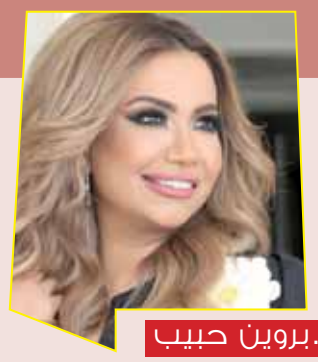

د.بروين حبيب

أعتقد أن الحرية التي كان ينعم بها الكاتب قبل وقوعه في شباك ال«سوشيال ميديا» ذهبت إلى الأبد ولن تعود، اليوم أضيفت إلى القضبان التي تسيجه مع قوائم الممنوعات التي تفرض عليه في بعض المنابر التي يطلُّ من خلالها على قرّائه.

وقبل أن يجد الكاتب نفسه رهينة متابعيه، نتذكّر أنه دخل مواقع التواصل الإجتماعي لغرض التواصل الراقي مع قرائه والترويج لمؤلفاته، ونتاجه الفكري. وهذا نوع من خلق هوية رقمية تُجارِي التطور الذي حدث في عالمنا، وتساعد على التسويق الذاتي للكاتب نفسه.

الفنانة فيروز

وفعلاً نجح نوع من الكتّاب والمؤلفين على المنصات الرقمية، وفشل آخرون خاصة ذوي المادة الدسمة فكريا والتي لا تتقبلها الجماهير المشغولة بالصورة الجميلة والخبر الشخصي والأهواء التي تفرضها أخبار الساعة.

ولقد أظهرت الأبحاث في علم الإجتماع الرقمي أن استخدامات "الويب الإجتماعي" يضع الكتاب في مواجهة أنواع من المتفاعلين، بهدف إبراز أدبهم، لكن الذي يحدث أنهم يفقدون وهجهم الأدبي بمجرّد الدخول في متاهة عرض الشّخصِي. حتى أن بعض الكتاب زادت سمعتهم السيئة، وارتفع منسوب الكراهية ضدهم.

تحليل عالم الشبكات الإجتماعية، وقياس الشهرة حسب عدد متابعي الحساب، وعدد الإعجابات، والردود والتغريدات، أدى إلى "رقمنة" الكُتّاب، وزُجّ بهم دفعة واحدة في فضاء مفتوح ومنهك للفكر والأعصاب. لا أدري كيف أسمي هذه المرحلة، هل هي مرحلة ما بعد قتل المؤلّف؟ أم مرحلة التنكيل بجثته؟ فقد تسارعت الأحداث لتوصلنا اليوم إلى حرب جديدة يحارب فيها الكاتب ليبقى على قيد الحياة أمام ماكنة رقمنته وسلخه من إنسانيته.

أمبرتو إيكو

قبل أسابيع قليلة فقط، كان لي مقال عن بيروت تحدثت فيه عَما تمثله لي فيروز كقامة فنية عملاقة، وبداية عشقي لصوتها، وتأثري بفنها الذي هو في الحقيقة مزيج من صوتها وموسيقى الرحابنة، كان التفاعل مع المقال مختلفا تماما عن منشور آخر لي عن تكريمها من طرف الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون بأعلى وسام فرنسي بعد زيارة خاصة لها في بيتها. حضر التّنَمُّر الإلكتروني المرعب الذي من النادر أن يقتحم صفحتي، وتألمت فعلا لبعض التعليقات، مشفقة على أصحابها. كما انهالت عليّ العتابات من كل لون ومن كل صوب من عالمنا العربي الفسيح. وفي لحظة ما شعرت بما يشبه الشلل، أمام ترسانة الهجوم تلك... ماذا يريد الجمهور العربي تحديدا؟

باولو كويلو

هل يريدون "فيروز" أخرى غير التي أنعم بها الله علينا؟ أم يريدون أن ترفض زيارة ماكرون؟ لأنه يمثل في "المخيال" العربي صورة الفرنسي المحتل؟

ألا يمكن رؤية إيمانويل ماكرون كشخص عادي لديه هواياته الخاصّة، وميولاته الثقافية؟ ثم ألا يمكن رؤية الدور العظيم الذي لعبته باريس في احتضان الثقافة العربية، ومنح مكانة محترمة لمثقفين عربَ لم تتوفر لهم حتى في بلدانهم. لماذا ننظر دوما للنصف الفارغ من الكأس؟

ألسنا من اخترع مقولة "لكل مقام مقال" ؟ ها نحن أمام المعطى الثقافي الذي تجاوز السياسي وتخطّى الأحقاد التي حُفِرَت على وجه التاريخ المظلم للأمم، فما نحن فاعلون؟

رسالة ماكرون كانت واضحة، وهو يتوّج الدور الثقافي للبنان، ونحن كمثقفين لا يجب أن ننخدع بالخطابات السياسية التي لوّثت فكر الشعوب العربية حتى أصبحت عدوة نفسها.

في باريس سنة 1987 تم تدشين المعهد العربي بتمويل من عدة دول عربية، للتعريف بالثقافة العربية في أبهى حللها. ومنذ تلك الأيام استقطب هذا المعهد في أماسيه الجميلة، ومكتبته، وبرامج محاضراته ومناقشاتها، مئات الأسماء المبدعة في كل مجالات الثقافة، ولم نسمع يوما أن هذا المعلم الثقافي روّج للفن الهابط الذي تعج به مسارح عربية يعرفها القاصي والداني، بل إن المعهد حافظ على رقيّه، وبنى تقاليد جميلة لا تزال مستمرة منذ فتحه للجمهور.

لفت انتباهي إشارة مدير المعهد إلى أن مبادرة الرئيس ماكرون تجاه لبنان: «ليست متعلقة بإقامة محمية فرنسية جديدة، بل على العكس من ذلك، وجب تسهيل ظهور لبنان حر، صاحب سيادة، سيد نفسه، ويجب معرفة أن في لبنان اليوم عدد لا يحصى من صانعي الأفلام، والكُتّاب والمفكرين والرّسّامين الذين يطلبون شيئا واحدا فقط: العيش، والعيش بحرية، وبكرامة..»

كما تأثرت بمبادرة المعهد التي أطلقت لدعم العاصمة بيروت، ولا أدري كم من مبادرة مماثلة أطلقت في من عواصم عربية من طرف المثقفين والكتاب لدعم المنكوبين ليس فقط في بيروت بل في بلدان أخرى مثل العراق وسوريا، والسودان مؤخرا ؟

سريعا انحرف خطاب التضامن مع بيروت، وأخذ مسارا آخر، وهو نفسه المسار الذي نتوه فيه دائما فنخوّن بعضنا بعضا، ونتحوّل لأعداء.

هذا هو عصب لعبة السوشيال ميديا عربيا للأسف، وهذا ما يجعل الكاتب اليوم يعيش مأزقا لا مثيل له، وهو يواجه جيوشا تحاول ردعه، وترويضه، والسيطرة عليه.

إن الأمور أحيانا تفلت من يد الكاتب، حين ينزلق في فخاخ متابعيه السلبيين، مع أن شبكات التواصل الإجتماعي يجب أن

تكون واجهة استثمار للترويج لنتاجه، وفضاء لبناء علاقات إيجابية مع المتفاعلين معه، وتجريب أشكال جديدة من الكتابة.

لكن عن أية أشكال نتحدّث؟

يصف بعض الكتاب هذه المواقع بأنها قاتلة لأنها تكشف أسوأ ما فيهم، فيما يراها آخرون إهدارا حقيقيا للوقت، ورغم ادراكهم لذلك، فإنهم يـزدادون إقبالا عليها، ويرجع عالم الإجتماع فينسنت كوفمان السبب إلى " الشعور بضعف سلطتهم في المجال العام" فالرقمية تغرق الكاتب في محيط من المجهرية، قبل أن تفكّكه، وتبعثره، حتى يصعب عليه جمع نفسه في صورة واحدة مكتملة، فجأة يكتشف وجهه الجديد من خلال أعين الآخرين، وكأنّه كائن مشوّه، رُكبت له أعضاء وملامح مستعارة من أشخاص آخرين ...

كابوس حقيقي هذا العالم الرقمي، ولعل أكبر ساخط على شبكات التواصل الإجتماعي الكاتب أومبيرتو إيكو (توفي سنة 2016) حين قال: «إن أدوات مثل تويتر وفايسبوك منحت حق الكلام لفيالق من الحمقى ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد كأس من النبيذ دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع، وكان يتم اسكاتهم فورا، أمّا الآن فلهم الحق بالكلام، مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل ، إنّه غزو البلهاء".

عكسه تماما، يسجل الكاتب باولو كويلو حضورا رقميا مبالغا فيه، زارعا لمتابعيه حقولا شاسعة من عبارات الحب والسلام الداخلي والإيمان، ومعاني الحياة، ومؤخرا أصبح يجد أبطالا لرواياته عن طريق فايسبوك. شيء شبيه بحضور الكاتبة الأمريكية جويس كارول أوتس، التي تصدر كل سنة كتابا، ولا يبدو أنها تستطيع أن تعيش بدون تويتر رغم أنها في الثانية والثمانين من عمرها.

في كل الحـالات تأثير هذه المنصات على الكُتّاب شبيه بالخوف من الموت، فهي تجعلهم يقيسون "حجم وجودهم" من خلالها، ويطمئنون على مدى تأثيرهم على متابعيهم بالتطلع الدائم للأرقام. فيما أيُّ طغيان لأحدهم من خلال تعليق ما يشكّل تهديدا حقيقيا لهم بالموت، يحرّض أغلبهم للدخول في حروب لا أول لها ولا آخر، بعضهم ينتهي به الأمر بإغلاق كل حساباته على مواقع التواصل، طلبا لهدنة مؤقتة أو طويلة، حدث أن أغلق ستيفن كينغ مثلا حسابه فايسبوك لأنه تعب من نوعية متابعيه، ونوعية الأخبار المغشوشة التي يروج لها، غير قصته الشهيرة مع تغريدات الرئيس الأمريكي دونالد ترامب...

والخلاصة، ما يريده الكاتب من هذه المواقع لا يناسبه تماما، فهي لعبة حظ، قد يدخلها بأدوات بسيطة وينجح من خلالها، وقد يدخلها بكل أسلحته الثقيلة ويخرج منها خاسرا، لكن يبدو لي أنها مهما كافأته فلن تقدم له الهدوء الذي يلزمه للكتابة، هدوء مكتبه المغلق الذي لا يسمع فيه سوى صوته الداخلي المنبعث من رأسه.

زوّار الليل
«ذكريات سجينة»

هدى الطائي

الصدى صرصر
في الباب الموارب
على ابواب صدري
ووجوه مكفهرة
تلعن اسمي
أترى من زحزح الفجر الوئيد
غير زوار
تقضّ الليل في جفني
تشقّ الليل في ظلي
فترديني سبية
جرجروني .. في كوة سوداء
فيها ألف عمر من سنيني
وبقايا آثار عتيقة
عافها قبلي مغنون الحقول
جحظت ايامهم رعبا
خلخلت أصواتهم (حمى انتظار)
بعثرت أشلائها خلف ابواب قيودي
جعلت تمتصني قيد الجدار
وتدّلت حزمة صفراء تغري
احكمت ابواب سجني

ورنين القيد دندن — في ثوبي العتيق
خلخال ثقيل اوجع كاحلي — قالوا: ماتت
وخصري — قالوا: ماتت
ثم أشلائي وكلي — قبل أن تلثم وجه الصبح
ويأكلني الغبار — وتتشهى العود دنيا
كفي يا أذني طنين — قبل أن تذكر سمّار الربيع
كفي يا أذني طنين — ثم قالوا : هي نار وحريق
وأصيخي لصغار الحي — عبثاً تغتصب الغلة الخضراء
في أهازيج الطريق — في عتمة
وخيوط الشمس ترعانا — صحرائي، وحزني، وجليدي
تصلي — يا إلهي، أنبتت نسلاً جديد
كل يوم — يتغذى من طباق الموت
وتزاور ... من غريق لغريق — في القبو العنيد
بعد أن جفّت عظامي — ويدوي
جف صوتي — في عروق الأرض يسري
من سنين السجن — نبضاً في صمت صدري

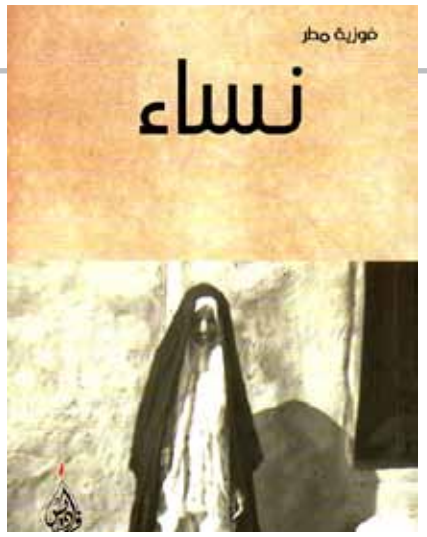

«نساء» ... مأثرة فوزية مطر

باب جديد طرقته الأستاذة فوزية مطر على خلاف المعتاد، ونقلة موفقة، حيث صدر لها كتاب عن "دار فراديس للنشر والتوزيع" بعنوان (نساء)، تضمّن مجموعة قصص قصيرة تروي حال نساء البحرين ومعاناتهن، والظلم الذي يتعرضن له من قبل أزواجهن، وعملهن من أجل إعالة أسرهن. القصص أو الحكايات الواردة في الكتاب هي من الواقع المعاش في زمنٍ ما، قبل الطفرة النفطية، ولو أن هذه المعاناة مازالت مستمرة حتى يومنا هذا وإن بنسبٍ أقل، بفعل تطورالمجتمع وزيادة منسوب التعليم وأثره على نسبة الوعي، ومن ثم القوانين المصاحبة لهذا التطور، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بحقوق المرأة.

حميد الملا

اختيار الكاتبة لهذا العنوان (نساء)، له مدلول واضح وصريح من خلال تناول وضع المرأة تحديداً في معادلة المجتمع، والدور الذي تقوم به على مختلف الصعد على الرغم من وضعها المأساوي والفقر المدقع الذي عاشته تلك الأسر، مما اضطر المرأة للعمل في المنازل أو بيع بعض المأكولات لمساعدة الأسرة.

ما يميز تلك الحكايات هو الأسلوب الذى صيغت به، أسلوب ينمّ عن معرفة دقيقة بواقع حياة المرأة في ذاك الزمن، وما لحقها من عسف وغبن وحيف وتـهميش وفرض الوصاية والعنف المنزلي وشحّة المدخول المادي للأسرة.

ثلاثة عشر حكاية في هذا الكتاب الشيّق ترويها فوزية مطر، متطرقة لأولئك النساء وتفردهن وإصرارهن على متابعة حياتـهن رغم قسوة الحياة وضنك المعيشة، وقلة الحيلة في معالجة أوضاعهن، والأمراض المصاحبة للفقر والجوع، نساء كافحن بجدارة من أجل عيش كريم لعوائلهن .

في هـذا الكتاب فتحت فوزية مطر كـوة في جدار الوعي لدى الجيل الجديد لتضعه في صورة ذاك المجتمع، ليتعرفوا على مقدار المعاناة التي عاشتها النساء في تلك الحقبة من تاريخ الوطن وما قدمنه على حساب صحتهن في مسيرة أشبه ما تكون بالمشي على الجمر، كل ذلك في سبيل العيش بعزة وكرامة، فقدّمن المستحيل من أجل ذلك ولم تنكسر إرادتهن أوتستكين، فصبرن على الأهوال والآلام وسوء المعاملة سواء من الأزواج أو المجتمع، حتى تمّ لها ما أرادت بالصبر والمثابرة، وبالعمل المضني استطاعت أن تنتشل واقع الأسرة وتنقله من حال إلى حال.

(نساء) «حكايات حكاها الواقع حاكها الخيال» كما تقول الكاتبة، وهذا ما فعلته بالتمام والكمال فعكفت على صياغة تلك الحكايات وأنجزت كتاباً جديراً بالقراءة حتى يتعرف من لم يعش تلك الحقبة من الزمن على حال النساء والقيود المفروضة عليهن والحالة المزرية التي عشن فيها بفعل البؤس والتخلف والجوع والمرض ورفض المجتمع لتعليم المرأة، وأهمية هذه الحكايات تنبع من قدرة الكاتبة على إيصالها للقراء بأسلوب أدبي جميل وبسيط وفي نفس الوقت شيّق ومعبر وسهل الفهم للقراء.

كيف السبيل مثلاً إلى تصور مجتمع دون وجود لأولئك النسوة المناضلات من أجل لقمة العيش، كيف السبيل إلى تصور أبناء من غير أم رؤوم تبسط جناح الرحمة والمودة على أبنائها وتعود عنهم لتحميهم من غائلة الجوع والفقر والمرض، هذه الحكايات تجيب على هذا التساؤل، فالمرأة حضرت وبقوة ونفضت عنها غبار التخلف بفعل المجهود الكبير الذي قامت به تلك في زمن مضى في سبيل نيل العيش الكريم.

فالفقر كان يفترس معظم العائلات ويخنقها، وتحت وطأته تئن وتستغيث طلبا للمعونة وكان عمل المرأة ضرورة لسد رمق الأبناء ولو في أعمال بسيطة مقدمة العون للزوج لزيادة دخل الأسرة.

فالليالي والأيام مملوءة دائماً وفي كل مكان من ذلك الزمن بصرخة الجوع التي لا تنتهي، فالضجة التي يحدثها تُلزم الاسرة على البحث عن رغيف خبزها بكل الوسائل الممكنة، وهذا ما فعلته نساء الكاتبة. فقد كان يشقّ على المرأة أن تجلس وهي ترى أطفالها يتضورون جوعاً ولا تـهب لمساعدتـهم، وبالخصوص اذا كان الزوج مريضاً أو يعمل في الغوص شهورا بعيداً عن عائلته.

يمكن القول بأن تلك الحكايات أيقظت تلك الحقبة من ذاك الزمن، وأعادت المرارات التي طبعته واتصلت به لتبقي شرارته وهاجة للأجيال كي يعوا ما كابده الأولون من مشقة وعناء ليفسحوا في المجال للأجيال اللاحقة لتعيش مستورة الحال بعيداً عما كابده اولئك الأولون.

فطراوة تلك الحكايات تظل في الذاكرة الجمعية، وكأنها حكايات ماض بينما هي حكايات واقعية وإن أتت بأسلوب أدبي ألبس تلك الحكايات ثوباً جميلاً، وهذا ما ميّز فوزية مطر في كل كتاباتها، فالدموع والأحزان والآلام التي عاشتها النسوة آنذاك لم تذهب هدراً بل كانت البذرة التي سكنت حنايا روح نساء الأجيال اللاحقة ليعشن حياة أكثر أماناً واستقلالاً بفضل كفاح النسوة المروية حكاياتهن.

لاشك في إنه كان بديهيًا أن يُصاب شعور المرأة الطبيعي من جراء ذلك الكدّ بالغم والكمد في أول الامر على الأقل، على أن هذه اعتبارات لا يمكن في وقت الفقر والجوع تغاضيها فكل شيء مضحى به لحساب العائلة والأطفال.

يستطيع القارئ للكتاب أن يستشعر بأن ما كُتب يعنيه من قريب أو بعيد، وبالخصوص ممن يعيشون قرى البحرين الساحلية ورحلة المصيف السعفية على الساحل، وهنا تقول فوزية (للمصيف ألقه الخاص في حياة الفتيات والشابات بما يمنحهن من هوامش حرية في الحركة والتنزه لايحلمن بجزء منها في حياة المدينة. كانت القرية الساحلية جنتهن السنوية الموعودة التي يتطلعن لعودة أيامها طوال أشهر العام.)

فمن أعماق السنين البعيدة، كان لوقع هذه الحكايات أثر على تذكر واستذكار أحوال النساء وما لاقينه من مصاعب وآلام وآمال وما قدمنه من تضحيات ، وكانت قلوبهن تضطرم بأمل عظيم مكتوم في الخروج الى واقع أفضل مما كانوا عليه. كن مجمعات على التفكير بأن رغد الحياة لن يأتي بسهولة دونما عناء وتضحيات ودموع وآلام، سخرن كل طاقتهن لتجاوز هذه المحن ناسيات كل شقاء، كانت المعاناة شديدة، فقدن كل إحساس بالفرح، أمهات وازواجاً وعشاقاً، ولكن ظلت شعلة الأمل مشتعلة رغم تلك الظروف العصيبة.

كتاب احتوى على الكثير من النماذج النسوية المكافحة، ألقت فيه الكاتبة ضوءاً ساطعاً على حالات أولئك النسوة، ولئن كان صحيحاً أن الناس يحرصون على أن يتمثلوا نماذج يسمونها أبطالاً، فإنه من الصحيح أن يكون الأبطال هم هؤلاء النسوة من خلال تلك الحكايات.

(نساء) عمل أدبي رشيق ومبتكر يقيم الصلات مع الواقع أجادت الكاتبة في تصويره وإخراجه بشكل مبهر.

محمود درويش وقصته مع «ريتا»

رضي السمّاك

نظم الشاعر الوطني الفلسطيني الكبير الراحل محمود درويش قصيدته «ريتا والبندقية» عام ١٩٦٧ إبان وجوده على أرض وطنه المحتلة ضمن «أراضي ٤٨" والتي غادرها مطلع السبعينيات إلى موسكو فالقاهرة حاطاً الرحال في بيروت، لكن القصيدة اكتسبت شهرة مدوية من لبنان إلى جميع أرجاء العالم العربي بعد أن غناها ولحنها الموسيقار اللبناني الوطني الكبير مارسيل خليفة ؛ حيث أضحت بعدئذ رائعة من روائع أغانيه يرددها ملايين العرب ويطلبون منه تأديتها في حفلاته الموسيقية أينما حل ضيفاً على أي بلد عربي.

نظم الشاعر الوطني الفلسطيني الكبير الراحل محمود درويش قصيدته «ريتا والبندقية» عام ١٩٦٧ إبان وجوده على أرض وطنه المحتلة ضمن «أراضي ٤٨" والتي غادرها مطلع السبعينيات إلى موسكو فالقاهرة حاطاً الرحال في بيروت، لكن القصيدة اكتسبت شهرة مدوية من لبنان إلى جميع أرجاء العالم العربي بعد أن غناها ولحنها الموسيقار اللبناني الوطني الكبير مارسيل خليفة ؛ حيث أضحت بعدئذ رائعة من روائع أغانيه يرددها ملايين العرب ويطلبون منه تأديتها في حفلاته الموسيقية أينما حل ضيفاً على أي بلد عربي.

بيد أن الاعتقاد ظل سائداً لدى الغالبية العظمى من محبي فن خليفة وقصائد درويش بأن «ريتا» هي رمز لوطنه السليب فلسطين في حين لم تكن ريتا سوى إسم مستعار لحبيبته اليهودية «تمار بن عامي» التي لها والدان ينتميان إلى بلدين اشتراكيين سابقين، فالأب بولندي والوالدة روسية، ولعلهما هاجرا إلى فلسطين قبل نكبتها في 1948، وقد عاش معها شاعرنا قصة حُب فعلية عاصفة لم تستمر أكثر من عامين لموقفها السلبي من العدوان الأسرائيلي على العرب 1967، على أن شاعرنا ظل أسيراً بمشاعره الجارفة لذكريات تلك القصة الغرامية الأليمة النهاية والعصية على نسيانه إياها طوال إقامته المديدة خارج وطنه في الشتات حتى وفاته الفاجعة عام 2008 في هيوستن بالولايات المتحدة إثر عملية جراحية في القلب عن عمر ناهز ال 67 عاماً.

ولم تكن القصيدة أصلاً بتلك الشهرة التي أضحت عليها قبل أن يغنيها الفنان مارسيل خليفة؛ لا بل لم تكن الأعمال الشعرية وسائر الأعمال الأدبية لأدباء عرب 48 معروفة أصلاً عند النخبة المثقفة وجمهرة المثقفين والقراء العرب إلا غداة نكسة 1967، إذ ظلت أعمالهم مجهولة لديهم ما يقرب من عشرين عاماً منذ نكبة 48 ؛ وذلك بفعل طوق العزلة المضروب عليهم من قِبل سلطات الاحتلال ، فضلاً عن المقاطعة الكلية الشاملة المتبادلة بين العرب وإسرائيل.

وبعد تسليط بعض وسائل الإعلام العربية عليها؛ انبهر المثقفون العرب انبهاراً شديداً بتلك الأعمال الأدبية لقوة تعبيرها عن قضية نضال الشعب الفلسطيني وعن نضالات جزء من هذا الشعب ظل متمسكاً بأرضه ولم يفلح عدوه في اقتلاعه من جذوره؛ لا تشريداً ولا قتلاً، فأضحوا شوكةً في حلق عدوهم إلى يومنا؛ وأخذوا يكيلون المديح والتقريظ فيها ، حتى تصدى لهم شاعرنا الخجول ببيانه الشهير "أنقذونا من هذا الحُب القاسي".

وكان الشهيد الفلسطيني الروائي الراحل غسان كنفاني المقيم في بيروت هو من أول من عرفوا عالمنا العربي بأدباء المقاومة داخل "إسرائيل". ورغم كل الاعتقادات التي ترسخت بأن "ريتا" في القصيدة هي فلسطين معشوقة الشاعر دون أن يخطر ببالهم ولو في الخيال بأنها حكاية حُب تجمع درويش مع معشوقته الفعلية اليهودية تمار/ "ريتا"، فإن الشاعر لم يكشف النقاب عنها إلا قبل بضع سنوات من رحيله تلميحاً وبصورة ملتبسة خجولة تقترب من الوضوح بما فيه الكفاية للإعلامي اللبناني اللبيب عباس بيضون وإعلامي فرنسي آخر.

بـدأت القصة على طريقة كيمياء الحُب من أول نظرة التي تشد الرباط بين عاشقين من أول وهلة كما عبّر عنها أمير شعراء العرب أحمد شوقي خير تعبير في بيته الشهير: نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء، وكان ذلك في مهرجان للشبيبة التابعة للحزب الشيوعي الأسرائيلي عام 1965؛ حيث انجذب شاعرنا إلى جمالها الأنثوي الفتّان وبرقصها الجميل في وصلة أو فقرة رقص شعبية، واستمرت العلاقة بينهما حتى عشية نكسة 1967 العربية فانقطع حبل الوصال بين العاشقين على إثر تجنيدها في جيش العدو الأسرائيلي استعداداً لعدوانه الإجرامي المشؤوم في ذلك العام على العرب، وكانت هذه العلاقة حتى وهو في وطنه المحتل غير معروفة إلا للمقربين من أهله وخاصته من رفاقه في الحزب.

وفي فيلمها الوثائقي الذي أخرجته قبل بضع سنوات المخرجة ابتسام مراعنة تسلط الضوء على أبرز خفايا تلك العلاقة، بما في ذلك رسائل الشاعر التي كتبها بلغة عبرية شاعرية رقيقة شفافة ، حيث كان شاعرنا يجيدها باتقان إلى جانب اللغتين اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وناجاها بعدئذ في عدة مجموعات شعرية عربية: "آخر الليل" 1967، "ريتا أحبيني" 1969 في مجموعة العصافير تموت في الجليل، "أعراس" 1977، شتاء ريتا" 1992، فيما كان أول ديوان صدر له بعنوان "عصافير بلا أجنحة" عام 1960 وكان عمره وقتذاك 19 عاماً .

وفي مجموعة "ريتا أحبيني" لا يصرح بمكان الحبيبة ولا بهويتها، حيث كان مراقباً من العدو؛ هو الخارج من آخر معتقل من اعتقالاته المتكررة قبل سنتين ؛ بل يتخذ من اليونان مكاناً رمزياً لقصته حيث يخاطبها: "نامي هنا البوليس منتشر" فكأنه بذلك يتمثل كلمات شاعر العامية المصرية الوطني الشهير أحمد فؤاد نجم في حبه لمصر زمن السادات إثر تكرر مرات اعتقاله: "ممنوع من السفر .. ممنوع من الغنا .. ممنوع من الكلام .. ممنوع من الاشتياق .. ممنوع من الأستياء .. ممنوع من الابتسام .. وكل يوم في حبك تزيد الممنوعات".

والقصيدة تعكس مشاعر الشاعر الوطني الملتزم على المحك الصعب حينما يجد نفسه بين خيارين لا توفيق بينهما ولا ثالث لهما؛ فإما الحبيبة الوطن وإما الحبيبة المرأة ، فينحاز بلا تردد رغم مرارة الانحياز لصالح الحبيبة الأولى لا الثانية، ولعمري هذا ليُحسب موقف صمود نضالي لا يقل شجاعة وخطورةً عن صمود المناضلين في السجون أو تحت التعذيب، وذلك لما هو معروف عن سلاح المرأة الجبار بأنوثتها الطاغية لإصطياد المناضلين في شراك العدو؛ علماً بأن الشاعر – كما تردد – مرّ بتجربتين فاشلتين من الحُب فالزواج في المنفى؛ إحداهما مع السورية رنا قباني إبنة شقيق شاعر الغزل الشهير نزار قباني التي مما ورد في شهادة لها بعد مماته، حسب مجلة "سيدتي" الصادرة في 12 اغسطس 2015 ، إشادة ببعض مناقبه الإنسانية الثورية في الكرم والبساطة رغم فقره وزهده.

وكانت هذه الشهادة العلاقة – إن صحت كما رويت بتفاصيلها الدقيقة في أكثر من مصدر إعلامي– أشبه بشهادة الروائية السورية أيضاً غادة السمّان عن علاقتها بصديقه الروائي غسان كنفاني بعد رحيله إثر استشهاده الدموي الفاجع صيف 1972 والذي فتت العملية جسده متناثراً على سطوح بعض عمارات بيروت حال تشغيله محرك سيارته المفخخة على الأرض في واحدة من أبشع الجرائم الأسرائيلية، ولم تكن جريمته سوى أنه كان رئيس تحرير مجلة "الهدف" الناطقة بلسان الجبهة الشعبية التي تنشر بيانات عمليات الجبهة ضد جنود الاحتلال الاسرائيلي.

لكن في عشق محمود درويش الإنساني الذي لم يكن يرمي من نهايته سوى الوصول إلى قفص الزواج – وإن يكن ضمن قفص الاحتلال الأكبر – ظل مشدوداً حتى مماته إلى حُبه الأول مجسداً قول الشاعر أبي تمام: نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحُب إلا للحبيب الأول.

خذ ما قلته لك بعناية

وفاءً للأستاذ الذي لم تجمعني به قاعة درس.. حسن عطية

هل ترى صورتي ضبابية؟ أسود وأبيض أم الاثنين معاً؟ في كل الأحوال، لن تتمكن من إدراك معالم واضحة للألوان وتمييزها قبل بلوغك العام! إنها سمرة «أسوانية»، ولكنك ولدت هنا في القاهرة التي ستعيش حياتك القادمة بها. سيسمونك "حسن"، اسم يطلق على حسن الخلقة والخلق، ولن تُخيب ظنهم باختيارهم للاسم، بل ستغدو نجماً في مسارك؛ «النقد»، تذكر هذا المصطلح جيداً، سيكون لك شأن كبير فيه، لأنك ستؤمن أنه موهبة وثقافة وحرفة ورؤية للحياة.

زهراء المنصور

وبسبب إيمانك المطلق هذا؛ سيكون منطقك يسيراً في إقناع الآخرين بأهمية ما تخصصت فيه، رغم يقينك المطلق أيضاً بأن النقد موهبة وملكة فطرية لابد أن تُدعم بالثقافة والعلم. لذا ستتحمس كثيرًا حينما تلاحظ باحثاً لديه استقلالية في الفكر، ستدعمه بكل طاقتك، كأنها إحدى مسئولياتك غير المبروَزة: أن تدفع بآخرين ليخوضوا تجربتهم بتحريض منك. أستاذ واثق لا يخشى المنافسة – كما آخرين – تتشارك جنباً إلى جنب بتواضع العلماء المحبب، مع أحد الذين اهتممت بهم على مقاعد الدراسة أو خارجها، ولعلك تعتقد أنها في صميم مهام الأستاذية، لكن وقتها ستكتشف أن أمثالك ليسوا أغلبية!

ستكون أكثر الناس حظاً بلقاء شريكة عمر حقيقية، اسمها الأول «عايدة»، تشاركك شغف الفنون وحب الحياة. شرارة المحبة الأولى ستكون في مؤتمر عام، وسيكون للقاء النقد والسينوغرافيا حوار طويل بعدها. هذه الرفقة لن تتبدل بعد سفرك إلى مدريد بإسبانيا. ستصر ألا تكون الشريكة «زوجة مرافقة»، وستصر أن تصعدا معاً سلم الحياة، حتى عودتكما إلى القاهرة مجدداً، بعد أن حصل كلاكما على الدكتوراه. ستعيشان حياة ممتلئة وسعيدة، حتى لو اكتست ببعض الخيبات، لكن من منا حياته خط مستقيم رائق؟ لا بد أن تنال قسطاً منها، لكن اطمئن؛ فمثلك قادر على التكيف مع كل عقبة باعتبارها مطباً مؤقتاً وزائلاً.

علاقتك بالقراءة والكتابة ستتبعها بالتأكيد مكتبة كبيرة، بها كل أنواع المعرفة لراغبيها، تحتل كل غرف بيتك المفتوح. وهذا البيت، المسكون بحب وتفاهم مع رفيقة الدرب، سيكون مزاراً لطلبة العلم من تلاميذك وغيرهم، زائرين جدد، وأصدقاء الأصدقاء، ملتقى للأصدقاء، وصالوناً أدبياً غير رسمي للنقاش حتى مع الذين لا يتفقون معك. ستكون واعياً لدرجة كبيرة حتى تفصل بين الاختلاف في الرأي والمهنية في العمل، والعلاقات الإنسانية التي تتفوق فيها دائماً، لأنك تجنِّب نفسك الصدام المنتهي بشروخ في النفوس، لا بسبب ضعف في الحُجة، لكنها القوة في التصالح مع النفس، وتجاوز خبث الآخرين، الذين تستقبل سلوكهم كما تتلقى عرضاً مسرحياً، بتفاعل عاطفي، وتأجيل الحكم العقلي، انطباعياً في تلقيه، ومنهجياً في تحليله وتفسيره. الحياة قصيرة مع حكاياتهم، والوقت الذي ستمضيه: إما في إنجاز، وإما مع من تحب، فتلكما غايتان لم تتوانَ عنهما، ولن يتخليا عنك حتى بعد عبورك هذه الحياة.

مرة؛ سوف يثير آخرون، نهشهم الإجماع على محبتك، على أن تخص الاهتمام بفئة «قد» تأتي لك بمكاسب ما، فيما يشبه الطرفة! هم أنفسهم يعلمون أنك أنظف الأيادي في بيئات تحوّل المستقيم فيها إلى متصيد، والمعاملة الجيدة صارت تعني خططاً مدروسة للوصول إلى مكسب مؤقت لا يدوم. لا ملائكة بين البشر الخطائين بطبعهم، لكن سيراك كثيرون هكذا، تحديداً وقتما تنأى بنفسك عن الدخول في متاهات العراك مع آخرين، إحدى هواياتهم الرئيسية: تصيّد هفوات غيرهم، والتعامل بنضج ملفت في التجاوز، وتمرير العيوب بصبر مبالغ فيه!

وصمودك سيكون مدهشاً أمام تصغيرك من آلام مرض خبيث يفتك بأي إنسان آخر غيرك في وقت قصير، لكنك مقاتل عنيد، ومهادن، وهادئ، تثير غضب المرض أكثر ليبدأ معك جولة مؤلمة أكثر من التي سبقتها، فتدخل لتقاتل وحيداً، شجاعاً، وتخرج كأنه تمكن من جسدك، ولكنه لم يتمكن من نهش روحك المحبة للحياة، حتى آخر يوم. ستتألم كثيراً، ولكنه سيظل طي الكتمان برغبتك. أنت لن ترغب بأن يراك الآخرون ضعيفاً، وستحافظ على سرك لوقت طويل حتى تفضحه فترات إقامتك بالمستشفى، وظهورك للعامة في المناسبات المسرحية بوزن مثير للتساؤل؛ عن هذا النحول الذي تسببت به جلسات الكيماوي الحارقة لكل ما هو حي في الجسم.

الاحتفاظ بسر المرض، والغيابات القسرية عن الملتقيات المسرحية، ستكون عبئاً على رفيقتك التي تعاني آلام حالتك المرضية، وآلام حفظ العهد، بأن لا تشغل الآخرين بالتفاصيل المثيرة للشفقة على عزيز يمرّ بوضع حرج. «عايدة» ستبادر دائماً بالإجابة النموذجية التي تفضلها «أنك بخير»، مع شكر شديد للسؤال، في تأكيد بيِّن أنه حدث عابر، فلا داعي للقلق على صحة الأستاذ. وأقدارك التي شاءت لك بمعاناة مرضية أرهقتك، ستضنُّ عليك بآفة أكبر من هذا المرض الجسدي، ستحرمك ثقل القلب والكره والتعصب الخاوي، والنظر إلى الأمور بمنطق الاعتدال الذي لن تحيد عنه منذ وعيك الأول؛ ميزانك عقلك، وهو حكمك. ليس هذا فحسب، فحبك للمسرح سيكون باب شفائك في فترات متقطعة، ستنجو من مطبات جسدية كثيرة بسبب حماسك للعمل في أقسى حالاتك المرضية، سيكون لك أصدقاء ومحبون يقدرون مكانتك وإنسانيتك، ويلتفون حولك بقدر صلة رحمك وأكثر.

حياتك قد تتشابه مع كثيرين في هذه الحياة، لكن الفرق بينك وبينهم "الأثر" الذي ستتركه إرثاً غير محدود، أولها بسلوكك المباشر الذي ينمُّ عن نبل وخير متأصلين، وثانيها بمنجزك في كتاباتك تحديداً – باعتبارها الأبقى– لن تنفصل عنك، ما ستكتبه في أبحاثك وموادك المنشورة في المسرح والسينما والفنون الشعبية، وحتى السير، هو ما ستؤمن به في الحياة حقاً، لا ازدواجية ولا شيزوفرينيا، لا تترفع على الواقع، ولا تلقي بنظريات مشتقة من الكتب غير قابلة للتطبيق. دراستك للنقد السسيومسرحي ستعود عليك بفائدة عظيمة، حيث التعامل بتطويع الفن للحياة بموضوعية تحقق الفائدة المرجوة منها.

سيكون لك محبون كثر، ومريدون كثر، ليس في بلدك وحدها. إخلاصك في عملك، وحبك له، سيبقيانك سيرة حية لوقت غير محدود من الزمان. وبعد انتهاء رحلتك، سيحزن من أحبوك بصدق، فتجاوز فكرة فراق الأحبة هي مهمة البالغين جداً.. البالغين أكثر من اللازم، الذين يتجاوزون الألم، بأنها الحياة، وأن الراحلين قد عبروا إلى الضفة الأخرى، حيث سيلتحق الجميع بهم في وقت ما. وسواء قبلت هذه الفكرة أو قاومها محبوك، ستكون هي الواقع الجديد الذي يجب عليك التعامل معه، الإنكار سيكون في أول الأمر، ثم يأتي الوقت الذي تذكر فيه المتوفى في سياق الحديث. سيكون هناك ألم بالتأكيد، لكنه أخف من المرة الأولى، وستعيش بأثرك وقتاً طويلاً؛ قيمة، وقامة نقدية، وإنسانية أيضاً.

هذا كل شيء للآن، كل ما أخبرتك به ستنساه حالما تخرج من غرفة الولادة، ولكنه سيتحقق بالكامل.. خذ كل ما قلته لك بعناية. سيتهيأ لك أنك تتذكره في فترات منقطعة غير واضحة. لا تتمسك بهذه الفكرة.. اتبع عقلك، وأشرك قلبك في قراراتك.

ولَن أتذكره؟

أبـداً، ولكنك ستعيشه بالكامل، وتتذوق مرارته وحلاوته معاً. أطلق صرختك الأولى حتى يتأكدوا من سلامة رئتيك بعد خروجك من رحم والدتك.. هذه هي المرة الأولى التي تتنفس خارج جسدها.. استعدَّ لخوض رحلة الحياة.. ثم.. نم بسلام.

متى ستنتهي الرحلة؟

.....

***

انتهت الرحلة في 27 يوليو 2020.

المدينة الشفافة

عثرتُ على الكتابِ بالصدفة، صدفةٌ خالصةٌ بينما أرتبُ كومةَ نشراتٍ إعلانيةٍ وأوراقاً متفرقة، ولا أدري لأي سببٍ أخذتُه ولم يكن الوحيدَ بين تلك الأوراقِ والنشرات، أخذتُهُ رغم أن العنوانَ لم يثرني، بل كان أدعى عندي لتركِه فلا نيةَ لديّ للاستسلامِ مجدداً لأيٍّ شيءٍ في ظلِ الخرابِ المتلاحقِ الذي تُصدّرهُ الأحداثُ ومجرياتُ الأمورِ في هذا العالمِ منذُ سنوات.

وضحى المسجن

في اليومِ التالي وبالصدفةِ ذاتِها اخترتُ أن أحملَ الكتابَ معي، رغم أني كنتُ ذاهبةً للتسوقِ على عجالة، لكني منّيتُ نفسي بالمرورِ بالمقهى بعد ذلكَ وتصفُّحه على سبيلِ التغيير فلستُ ممن يرتادون المقاهيَ بغرضِ القراءةِ غالباً ، ولا أنكرُ أن الصدفةَ هنا كانت جزئيةً فحجمُ الكتابِ وخفتُّهُ جعلتني أفضلهُ على كتابين آخرين.

قبلَ التسوقِ وقبل المقهى، في السيارةِ تصفحتُ الكتاب، قرأتُ السطورَ الأولى من الروايةِ، أحببتُها، بدأتُ بامتداحِها لأختي، ولصديقتي من بعدها، بعد أيام امتدحتُها لصديقٍ آخرَ كان قد استعار مني كتاباً.

المحصلةُ أنيَ صرتُ امتدحُ الروايةَ التي لم أقرأ، امتدحُها لأيام وأيام بحماسٍ هائل كنتُ قد فقدتُه في حديثي عن أيِّ شيءٍ يجذبُنيَ. (استسلام) قرأتُ الروايةَ أخيراً، أعني بدأتُ القراءةَ، سطراً تلو سطر، صفحةً تلو صفحة، ذكّرتني بمزرعةِ الحيوانِ لجورجَ أورول، بالكونترباص لزوسكيند ، بالسكير لزولا، تلك الأعمالُ الساحرةُ التي تقول شيئاً لا يمكنُ تجاهلُه بعد القراءة، الشيءُ ذاتُه الذي لم نعد نلتفتُ له عادةً.

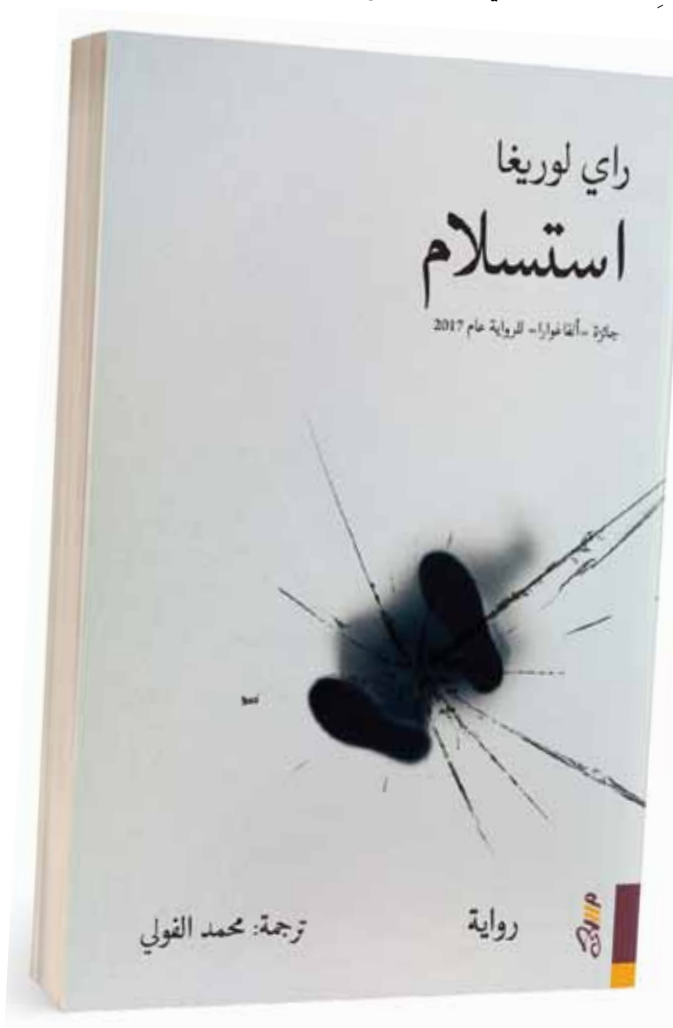

استسلمتُ لعبقريةِ النص، روايةُ (استسلام) لراي لوريغا، صرتُ أسألُ عن ماهيةِ هذه الروايةِ اللامعقولة.. روايةٌ تقولُ كلَّ شيء، كلُ القضايا مطروحةٌ هنا على صفحاتها: عن السلطةِ، عن العلاقات، الحرب، الحُب، الجسد، الكذب، السُكر، الخجل، الطفولة، العملِ، الأهليةِ، الاستحقاق، التجسس، الدسائس، الكتب، الأسئلة، التمويه، الحذر، الخوف، الرحيل، والصمت والخداع، الطمأنينة الساذجة، الخطأ، السعادة، المرض، الأبوة، التجاهل.. كلُّ ذلك بسلاسةٍ نادرة.

فنتازيا مدهشةٌ لكشفِ الطريقةِ التي ابتكرها هذا العصرُ لتدجينِ البشر، عبرَ وهمِ الرضا الدائم الذي يتبدّى عبرَ حوائطِ المدينةِ الشفافة.. المعادلِ الموضوعي للحياة المعروضةِ عبر فضاءاتِ وسائلَ التواصلِ الاجتماعيِّ حيث تتم صياغتُك لتكونَ معداً لدورٍ محدد، ولعل هذا ما اسماهُ الكاتبُ (التبلورَ) حيث تتمُ صياغتُك فلا يعودُ هناك مجالٌ للتخفي أو الأسئلة، لا مجالَ لكيانك المتفردِ عن الآخرين مثلُ ألّا مجالَ لقلقك الخاص أو غضبك المباشرِ والمعلنِ الرافضِ لأيِّ شيء،وكأن الخيارَ الوحيدَ المتاحَ لكلِّ فردٍ هو الاعجابُ الساذجِ بكلِّ ما يُطرح أو الصمت.

مدينةٌ شفافةٌ تحكمُ حياةَ الفردِ بسلطاتٍ لا متناهيةٍ تُخضعُه في كلِّ شيء، تحددُ له كلَّ الخياراتِ سلفاً حتى لا تعودَ له رغباتٌ خاصةٌ، و طبيعةٌ خاصةً.. حيث أنتَ مجردُ فردٍ ضمن آخرين تمّت بلورتُهم جميعاً كي يكونوا (بلا رائحة).

بيت بلزاك

ما أن تصل إلى بيت بلزاك الكائن بباريس بعد رحلة ارتفاع شاقة على الأقدام، لا تستطيع سوى إظهار مشاعر الإنبهار، ثم تخيل جو العمل مثالي الذي يليق بشخصية الكاتب على مكتبه. أحسب أنه قال في إحدى رسائله لعشيقته الكونتيسة هانسكا التي ظل يتودد إليها سبعة عشر عاماً: «لهذا يا عزيزتي أعشق السكن في بيت هادئ، اذ لديّ الفناء والحديقة الخضراء المزينة بعطر البنفسج في آن، بيتي هو العش والصدفة، بيتي هو الظرف الذي يحملني، إذ أنا الرسالة و أنتِ قارئتها».

الحق يقال؛ هذا البيت المبني على حديقة سلفاً حوى بلزاك سبع سنوات، أي بين العام 1840 حتى العام 1847، وبالرغم من أنه كان غارقاً في الديون، استطاع أن ينجز فيه روايات عدة ك»الأوهام المفقودة»، «مباهج و مآسي العشيقات»، «العمة بيت»، «العم بونس»، وغيرها من الأعمال البارزة.

شغل بلزاك الطابق الثاني من البيت، وكان يحتوي على مطبخ، غرفة نوم، مكتب عمل، وغرف أخرى أعارها بلزاك بمبلغ على أصدقائه الفنانين لتسديد قليل من الديون. كل هذا غير مهم، المهم هو طريقة رؤية بلزاك لمكتبه اذ كان يصوره «بالصومعة» أو «السجن»، وهو الساجن والمسجون. وذلك لأنه لم يكن يسمح لنفسه بالخروج من طاولة العمل قبل إنجاز ما عليه من كتابة. يكتب صباحاً ومساء وأحياناً أياماً كثيرة من دون توقف عن الكتابة والتفكير إلا في أوقات الوجبات. يذكر أن الكتب الموجودة فاضت على مساحة المكتب، فبعثرها في كل ردهات البيت، مع عدد يتخطى أربعة آلاف عنوان.

كان يرى في الكتابة أحسن تمثيل لمفهوم العمل، ويحمل شخص الكاتب فيه مسؤولية الإتقان الكلي لكل تحفة أدبية يقبل عليها؛ «العمل الدؤوب المستمر هو قانون الأدب مثلما هو قانون الحياة، ذلك لأن الأدب يتطلب من المؤلف أن يكون رب الخلق المثالي. أيضاً

سوسن حسن

الكتّاب العظماء والشعراء النموذجيين لا ينتظرون أمراً من دار نشر أو زبون للمباشرة في الكتابة. هم لا يتوقفون عن الولادة اليوم وغداً ودائماً».

استطاع بلزاك إنهاء «الملهاة الإنسانية» بفضل حس الإلتزام هذا وكانت هي أكبر مشاريعه. أذكر أنه وعد في أحد رسائله أن يتفوق هذا العمل على علو أحد كتدرائياته المفضلة. وبالفعل، لم يكذب بلزاك في ذلك لأن الملهاة أصبحت أحد أكبر السلاسل الأدبية المنتجة في القرن التاسع عشر؛ كل العناصر كانت فيها منظمة لاحتضان العصر كله، بجميع خلفياته الاجتماعية وتطوّر أقدارها.

المبهر في كل ذلك أنه أنجز ما خطط لإنجازه قبل أن تأخذه المنية في سن الخمسين، وبأن المنية أخذته أساساً بسبب نظام الحياة القاسي الذي فرضه على نفسه. كان يقبل على الكتابة كعامل المصنع الذي يبدأ صباحاً وينتهي مساءً، وإهماله لصحته منع طبيبه من تدارك المرض الذي ألمّ به. من قلة النوم، قضى بلزاك آخر سنة من حياته وهو يخلط بين طبيبه وبين الطبيب «هوراس»، أحد شخصياته في «الملهاة الانسانية» حتى أضحى يمزج بشكل دائم بين الحقيقة وخياله الأدبي.

اللافت في النظر أن الأغلبية الساحقة التي حضرت جنازة بلزاك كانت تنتمي للطبقة العاملة في باريس. أحسب أن الناس البسطاء التمسوا في أعمال بلزاك أمثل تصوير لحالهم مع نخبة من الكتاب المعروفين أمثال فيكتور هيوغو وسواه، حتى أنه ختم الجنازة بهذه الكلمات :»كل رواياته تتلخص في رواية واحدة حية، ومضيئة، وعميقة، نذهب بها بعيداً ونرجع، نتحرك من خلالها، ونتأثر، مع خيال مخيف وعظيم ممزوج بالواقع. كل حضارتنا مختصرة في هذه» الملهاة الإنسانية» التي يحق لبلزاك أن يسميها تاريخاً. دون أن يعرف صديقي ما سأقول، سواء أحبَّ ذلك أم لا، سواء وافق أو لم يوافق؛ مؤلف هذا العمل الهائل والغريب هو من فصيلة الكتّاب الثوريين».

احذرْ من شفقة الحب!

بتول حميد

في باحة أحد المعارض، وتحديداً في متحف البحرين الوطني، نادتني لوحة مفعمة بالأسى، مكتظة بالأحمر القاني والسواد المصوّغ من هيئة ملاكٍ يجثو على ركبتيه ضاماً جناحيه وخاضعا لعذاباته.
ليس بالضرورة أن تكونَ محللا نفسياً لتفهم ماوراء هذه الألوان من مونولوج وصراع نفسي أو حكاية صغيرة عبقها الخيال الشجي. وفي الوقت ذاته قد تملك شعوراً استثنائيا بلوحة كأن تذكرك بشيء عالق في قلبك. ولعل الذكرى التي نقرت العقل كانت ملحة لأستذكر مروراً بأخيلة الألوان إلى قصة رسام قديمة، كان ذائع الصيت بما يرسم من لوحات فريدة ويقيم من معارض ناجحة، وثيمة لوحاته كلها سيدة جميلة تمتلك نفس الملامح في كل اللوحات، بيْد أنها مختلفة الإيماءات في كل واحدة منها. فتنة اللوحات مستمدة من عينين ساحرتين وشفتين مكتنزتين تجعل المتفرج عليها يسأل نفسه مستدركاً، ولكن ماذا لو لمس الرجل قلب امرأة جميلة واستشف أنه خاوي العاطفة، وتحسس عقلها بأفكاره فوجده أجوف؟

ملامح الحسناء التي كانت تكتسح اللوحات، صارت حديث الساعات ومبعث شغف المتفرجين، إلا أنهم ذهلوا أن المرأة هي زوجته المتشوهة لحريق قديم نشب في بيته فخطف بنيرانه نضارة وجهها وحولها إلى تقاسيم تكسوها الحروق الخالدة. سألوه برعونة وصراحة جاسرة، هل مازلت تحب هذه المرأة؟ وهل هي الإلهام لريشتك؟ أجابهم ببديهية: زوجتي هي من آثرت أن تحافظ على مخزون لوحاتي فيما كان بيتي يحترق، وتحملت سياط ألسنة اللهب لتأخذ كل لوحاتي خارج البيت وكان نصيبها أن طغت النار على جلدها الرقيق. لا أرى فيها إلا المرأة التي تزينت بالتضحية والتي سأبقى أحبها ما حييت.

كل روح في هذا الكون البديع هيأها الله لاستقبال الجمال، ولكن لكل روح أيضا نظرة نسبية ومعايير مختلفة حد الدهشة! منا من يبحث عن الجوهر بنفسية حساسة وشفافة ومنا من يكتفي بالظاهر ويتبع خطى المادة والمظهر مهما كان هشا أو يجنح للضعف. لكنّا مهما قرأنا أو أدركنا مشاهد حياتية عن التعاطف الإنساني الذي يتصف به بعض البشر، فإن الوصول إلى فهم خالص لهذا الشعور الأصيل يستدعي وعياً وتجربة ورؤية حساسة لا يبلغها جميع الناس.

ربما لأن الطريق إلى التعاطف يبدأ بالشفقة مرتكزًا على الحب الأساسي للإنسان وللحياة حتى يصل المرء بذلك إلى قيمة أخلاقية من درجات الخير والجمال تتمثل في الرقة، التي تتجسّد من خلالها رؤيتنا للآخرين و-كأنهم نحن-. إذْ أنني إذا كنت أتعاطف معك، فمعنى ذلك أني أعيش موقفك وأتمثل كينونتك بأكملها وأتلمس تفاصيل حياتك؛ ليس على سبيل التقمص الخيالي فقط وإنما على مستوى الوعي العقلي بالتجربة الإنسانية، وبذلك تتكشف لي شخصيتك وألوان تشكيلك الجوانيّ، مما يمكنني من فهم موقفك ورود أفعالك ودوافعك. كما يقول فرويد "التعاطف نوع خاص من كشف الهوية؛ حيث نرى أنفسنا في أشخاص آخرين ونجعل تجاربهم وسلوكهم والمواقف التي يعيشون بها جزءاً من نظرتنا إلى ذاتنا" فهل نستطيع أن نصل إلى ذلك؟

يختلف نيتشه مع فرويد ويرى الشفقة لا تقتصر على مضاعفة بؤسنا، بل إنها تقود أيضًا إلى انتقاص الكرامة؛ فالشفقة – أو حتى الرأفة – على إنسان آخر تمنح المُتلقي تأييدًا ضمنيًّا للظرف الذي أثار الشفقة في المقام الأول «لقد تجرأ الناس على وصف الشفقة بالفضيلة! بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك بجعلها عين الفضيلة؛ أساس ومصدر كل الفضائل، لكن لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن هذا المنظور مأخوذٌ من فلسفة عدمية نقشت نفيَ الحياة على درعها. كان شوبنهاور مُحقًّا في رأيه بأن الشفقةُ تنفي الحياة، وتجعل منها شيئًا جديرًا بالنفي. إن الشفقة ممارسةُ العدمية. مرة أخرى: هذه الغريزة المُثبِّطة والمُعدية تتعارض مع الغرائز التي تعزز قيمة الحياة وتحافظ عليها؛ إذ إن الشفقة إحدى وسائل زيادة الانحطاط حينما تُضاعفُ البؤس بقدر ما تستبقي كلَّ شيءٍ بائس. إنها تستدرجُ الناس إلى العدم».

في تصوراتنا التقليدية، ربما نرى في حبّ الذات خطيئة، وأن المماراة بمحبة النفس ذنب. على الرغم من إقرارنا بأن فاقد الشيء لا يعطيه، لكننا سلطنا حواسنا لإيثار حبّ من حولنا على ذواتنا، وللانصهار والتماهي في علاقات يتلاشى معها إحساسنا بأنفسنا متناسين أن لأنفسنا علينا حبّ.

يقول الروائي النمساوي ستيفان زفايغ في روايته -احذر من شفقة الحبّ-؛ «الشفقة قد تكون في بعض الأحيان أشد ضرراً من الإهمال واللامبالاة». الرواية بعنوانها الكثيف والتي وزعت منها أكثر من 140000 نسخة في ألمانيا؛ بدأت برسم ملامح البطل الضابط "هوفميلر" الذي قرر أن يسرد حكايته ويكشف عن سر الوسام الذي تقلده بسبب شجاعته على مسامع ذلك الكاتب الذي التقى به في أمسية حفل ما. بدا الضابط الوسيم مرتباً يلوذ بالغموض الحزين وراء قصة حب وخيبة ومرارة سببها قدر يقوده إلى بيت رجل ثري مثقف.. محب للموسيقى وحياته قد تبدو لمن يطالها بصره سريعاً شبه كاملة. لولا أن لديه ابنة صبية حسناء كسيحة تعزف الموسيقى بشجن خالص.. تتحدث برهافة عن أفكار قاسية أو بإرعواء عن مشاعر هشة! تبدو كلوحة بعنوان "المرأة الحلم". يكتشف الضابط الشاب أنها مصابة بالشلل ولكن الأطباء يقولون إنها قد تتشافى مع الوقت. وهكذا تدخل "أديث" الناعمة إلى حياته من باب الشفقة؛ لقد أشفق على هذا الجمال! وأصبح يتردد على البيت الفخم مرحباً به من الجميع يدفع كرسيها المدولب ويستمع إلى صوتها العذب وأفكارها وما يلبث أن يتقدم للزواج منها من دون دراية! ثمة شكل آخر للشفقة يرسمه زفايغ ويختلف عن الشكل المألوف لدينا أو يتبدى من زاوية أخرى أشبه بما قاله إبراهيم الكوني "لأن الحبّ عدو الشفقة.. لأن الحبّ يحيي ولكن الشفقة تميت"!

تتساءل وأنت ترقب "أديث" و "الضابط": هل كان تماس أرواحهما خبطة عشواء من صياغة الظروف؟ هل هو وليد منفعة؟ أو هو نهاية لأسباب خفية قاهرة؟ هذا الشعور الذي ألفه تجاهها لم يتخذ قالباً معروفاً مما يجعلك تتخبط معه تقوّس شفتيك وأنت تقرأ ما ينتابه من شعور وما يحدثه من ردود أفعال.. تذبل جبهتك كلما قلبت صفحة وأنما زفايغ يرتدي بدلة طبيب جرّاح وراء الرواية إذْ يغوص في الخفايا النفسية لدى الضابط والشابة الحالمة ونظرتهما للحب.. تتمعن وهو يصف استمالة والد الفتاة الحالمة وهو يستميل الضابط، وكيف يتحوّل بفعل قسوة الحياة من شاب متغطرس وأرعن لكهل يفرط في تدليل صبيته المريضة ويتعلق بحبال الأمل البعيدة ليراها معافاة سعيدة.. تقرأ بريبة وقلق كيف سيحسم الضابط علاقته بها .. كأنك تضع ضمادة كبيرة على روحها النازفة! كيف سيدفع الشاب ضريبة سجيته أو أتعاب اندفاعه أو فضوله.. هل سيحفر قبر أديث حين تظن أنه تملص من حبه لها أو قزمها كأنثى؟ أم أنه استفاق من ازدواجية شعورية صورت له إحساسه بالشفقة كالوقوع بالحبّ؟ أسئلة لن تنتهي سترافقك بعد ختام الأحداث..

هل يمكننا الدخول ببساطة تحت جلد الشخصيات لفهم ما يؤرقها من البؤس والإحباط والذل والغيرة والألم واليأس والضياع والكبرياء والنشوة والعناد والعنف؟ هل نتمكن من تمييز ما تبرزه الشخوص خصلة من خصال وأنماط سلوك مرتبطة بالفطرة أو بالبيئة أو بالأخلاق؟ هل عدم اتخاذنا لقرارات مهمة كلفة فادحة تفوق ثمن القرار نفسه؟ كيف ندوزن بين شعورنا بالحب والشفقة والانهيار والصرامة وفق مساورة لا تؤذينا ولا تؤذي من حولنا؟ هل نضحي بحياتنا وأحلامنا بغية تجنب إيلام الغير أو خفض طاقاتهم للحبّ والعيش؟ هل يمكننا بالفعل ضبط إيقاع قلوبنا بلا إفراط ولا تفريط؟

لَيْسَ كَمَا تظُن

قصة قصيرة
جعفر الديري

انكشف المستور وتبدَّت الحقيقة واضحة دون رتوش. ولا مجال الآن للتبرير، فإن الزوج التعس اعترف في مكان عام بجرمه القبيح، كأنّما أراد أن يعذِّب نفسه بعد إدانتها. غير أنَّ سَوط عذابه، لم يصبه لوحده، بل أصَاب قلبها وكبرياءها، فهي تنزف بغزارة من نظرات الناس وشماتتهم، وهي التي عاشت طوال عمرها حريصة على اسمها ومكانتها.

أمَّا العمل الذي أجهدت نفسها فيه، حتَّى حقَّقت بمثابرتها ما عجزت عنه الأخريات، فيوشك أن يفلت من بين يديها.

كيف لا والرئيس البغيض للنفس، لا يتوانى عن تحقير كُلَّ إنجاز تصنعه بجهدها وذكائها، ولا يكذِّبَ أي من تقارير سكرتيرته الوقحة.

إنَّهما ينتهزان الفرص للنيل منها، وها هي فرصة لا تُعوَّض تأتيهما على طبق من ذهب، وبيد مَن؟! زوجها، ووالد أبنائِها، سكنُها الذي تعيش معه في بيت واحد!.

رنَّ الهاتف، فأيقظها من هواجسها.

رجف قلبها، وأحسَّت أنَّ الخيط الواهيَ على وشك الانقطاع.

تماسكت، أخـذت نفسًا طـويـلا، ثـم أمسكت بالسماعة:

– نعم..

– كيف حالك سميره؟

كان صوت السكرتيرة، كما توقَّعت. تشمت بها لا شك، لكن هيهات أن تترك لها الفرصة...

– أنا بخير.

قالت السكرتيرة بدلع:

– آه يا سميرة.. كم أنا آسفة لأجلِك.. كان على زوجك أن..

قاطعتها بحِدَّة:

– أهذا سبب اتصالك؟

سكتت السكرتيرة لحظات، قبل أن تجيب بحنق وقد أثارتْها لهجتها..

– لا.. أردت أن أنقل لك كلام الرئيس.

أمسكت أعصابها بإرادة حديدية...

– ماذا يريد؟

– يقترح أن تخرجي في إجازة تريحي فيها نفسك.

ليس الإجازة ما أراد، تعلم جيدا أيُّ نفس خبيثة يحمِل بين جنبيه.

– أرجو أن تسامحيني.. ليس لي دخل بالأمر.

بل لكِ دخل لا شك، لكني لن أمكِّنكما من رقبتي.

قالت ذلك لنفسها، ثم رمت بالسماعة، وانطلقت لمكتب الرئيس.

فتحت الباب فوجدت السكرتيرة، لا تزال ممسكة بالسماعة، متفاجأة من دخلوها، ودون أن تُعنى بها فتحت باب الرئيس، فرفع هذا رأسه عن الأوراق التي أمامه، متفاجأ مما يحدث.

قالت وأعصابها تكاد تفلت منها:

– أخالك تبحث عن سبب لفصلي.

التزم الصمت، وإن ران على فمه شبح ابتسامة ساخرة.

– لا ذنب لي بجريرة زوجي، ورغم ذلك لا تتورّع عن ظُلم موظفة قديرة، مُخلصة لعملها.

– أرجوك.

قاطعته مُحتدَّة:

– لِمَاذا تُصرُّ على مُحاربتي؟ أيُّ أذيَّة بدرت منّي في حقِّك؟

– سيدتي..

– اسمع.. إذا تخيَّلت أنَّـك قضيت علي، فأنت واهم.. لست ممَّن يستسلمون بسهولة.. إنّ لديَّ من الشهادات والخبرات ما يفتح لي آفاقا أرحب من هذا العمل، وسوف تسمع عن قريب ما يشفي غليلك.

ثمَّ أغلقت الباب بقوَّة، ومضت غير عابئة بنظرات السكرتيرة الذاهلة.

استقلَّت سيارتها، ثم أمسكت بجهاز الآيفون..

جَاءها صُوت الرجل مُرحِّبا من الجانب الآخر:

– أهلا سميرة.. كيف حالك؟

– أنا بخير.. إسمع.. ألا يزال العُرضُ قائِما؟

رد باهتمام:

– طبعا.. هل غيَّرت رأيك؟

– نعم.. أنا في الطريق إليك.

– أهلا بكَ في أيِّ وقت.. سأنتظر مجيئك.

أغلقت الجوال، وانطلقت بسيارتها، عاقدة العزم على أن تُريَ الناس أيُّ موظَّفة قديرة، جديرة بالتكريم هي.

قصص قصيرة جداً

نعيمة السماك

اطمئنان

كان عليه أن يموت. ليضع حداً لذلك الشتات الذي أضناه، وأرّقه ليالٍ عجاف. ما كان لهم أن يلتفوا حول بعضهم البعض كعائلة صغيرة، لو لم تغادره الروح ويحضروا هنا ليعزّوا أنفسهم فيه. ها قد اطمئن قلبه بعد أن ترك لهم ذلك الدفء الذي طالما اشتاقه طوال سنوات الشتات. ولا ضير إن فارقهم الآن. يكفيه أنهم اجتمعوا وإن غاب عنهم، إلا أن غاب الوطن.

رطانة

في الساعة الوحيدة التي منحت لإستراحة الغذاء، اخترت مطعماً قريباً، ومألوفاً اعتدت أن ألجه كلما ولجت للمنطقة. بدا المطعم شبه خالي، فيما كانت فيروز تصدح بحنجرتها الذهبية، كانت العاملة تمسح الأرضية والعاملون منهمكون جداً في إعداد الأطباق. اتخذت لنفسي زاوية قصية ورحت اترنم مع فيروز. كل شيء بدا منسجماً ومتناغماً: الديكور، الأكل، والموسيقى والكلمات سوى الرطانة التي أفسدت عليّ متعة اللحظة.

غليون

قفزتُ من سريري وهرعت إليه من فوري.. ما أن لمحني خلف الباب الموارب حتى ناداني، وأسقط في كفي الصغيرة تلك البيضة التي سلقها تواً على جمر المنقلة. تلقفتها بفرح ورحت أنقلها من يد لأخرى كي تبرد قبل أن التهمها. كبرت. وبقي جدي مقرفصاً في زاويته الأثيرة. يشذب غليونه العتيد حتى بعد مضي أربعة عقود من رحيله.

قصائد هايكو

زهور كليمت

هدى حاجّي

1
أشجار الخريف
لمعانها يشعل
عيون العصافير

2
أوراق ذابلة
أمدّ يدي
لأتحسّس الخريف

3
يا لأشواك الطريق
أغنّي و أغنّي
لأقاوم وخزها

4
آخر أوراق الدالية
الغصن في وداعها
يسفح الندى

5
وارفة
على الغصن الأجرد
فراشة مزهرة

6
ضباب الفجر
كأنّها تناغي أقحوانة
أقحوانة

7
قمّة الجبل
لَا تُبدّد رُهابي
نشوة الوصول

8
من كوّة الشجرة
يستكشف المستقبل
فرخ النقّار

9
قوس قزح
أرواح موتى
تصل الأرض بالسماء

10
قمر أيلول
زهرة تلوّن
سواد اللّيل

11
حقلُ الفَاوانيا
كلُّ زَهْرةٍ عُشٌّ
لفراشاتِ البراري

12
على هشاشتها
يستند العالم الموجوع
زهرة اللوتس

13
أيتها الفراشة
علميني طقوس الاستنارة
كي أخلع الشرنقة

14
شهوة الطيران
لدى شجرة ـ
زهرة مانغوليا

15
ظلال الخريف
لا تذبل أبدا
زهور كليمت

16
الأرض رمال متحركة
أودّ أن أصرخ :
ليت لي أجنحة

17
أنثى الفلامنكو
أعرفها ـ
غنج وِقفتها

18
نجوم مبعثرة
انضّدها بعيني
حوض حبق

19
بحيرة بجع
عزف أوركسترالي ـ
رفيف أجنحة

20
اختبار كوفيد ـ
لذيذ و فاخر
مذاق الشوكولا

21
زهرة الخشخاش
دون أن أرفع راسي
قطعة سماء

22
منتصف نيسان
لولا زهور الليمون
لا شيء يضيئ الغيم !

23
من النّافذة
بزهرتين تلوّح لي
شجرةُ التّفاح

24
مُقبلةٌ مُدْبرةٌ
تريدُ زهورَ فستاني
فراشة

25
حمامات الساحة
تحطّ على أكتاف المارة
بلا كمامات

26
يوم الأحد
كسلى عن الطبخ
أفتّت الخبز للعصافير

واحة الفكر

ثلاث رسائل من إنغلز «مقتطفات»

ترجمة وإعداد: هشام عقيل

.1

فريدريك انغلز إلى ف. ويسين (في تكساس)
لندن 14 مارس 1893

الرفيق العزيز،
لم أتمكن من الرد على رسالتك المرسلة في 29 يناير بفعل تراكم الأعمال علي.
أنا لا أرى لماذا سيكون هناك أي تناقض مع المبدأ الاشتراكي– الديموقراطي في حال رشح أحدهم بعض الأشخاص لأحد المناصب السياسية التي تحتاج إلى تصويت، وبالتالي التصويت لهؤلاء المرشحين؛ حتى وإن كان عمله كله ينصب في تقويض كل المناصب السياسية.
قد يفترض أحدهم بأن أفضل وسيلة لتقويض النظام الرئاسي ومجلس الشيوخ في الولايات المتحدة الأمريكية هو عبر انتخاب الأشخاص (لهذه المناصب) الذين سيقومون بهذا التقويض؛ وسيكون من المنطقي لو تصرفوا بشكل موازٍ لمهماتهم. قد يجد آخرون بأن هذه الطريقة ليست عمليةً؛ وفي نهاية المطاف، أنها مسألة خلافية. لكن طريقة العمل هذه قد تتلاءم مع ظروف تفترض إنكاراً للمبدأ الثوري. ولا أدري حقاً لماذا يحصل ذلك بشكل دائم.
إن المهمة الأولى للحركة العمالية هي الاستحواذ على السلطة السياسية من أجل، ومن قِبل، الطبقة العاملة. حالما نتفق على هذه النقطة، فإن كل الخلافات التي ستنشب ما بين أتباع هذه الفكرة العقلاء حول طرائق ووسائل الصراع لن تؤثر على المبدأ نفسه، إذ إنهم لن يختلفوا على المبادئ الأساسية.
برأيي: إن أفضل التكتيكات في أي بلد هي تلك التي تؤدي بشكل سريع ومؤكد نحو هذا الهدف. أما في الولايات المتحدة فأن هذا الهدف هو بعيد المنال.

.2

إلى بُل لافارغ (في فرنسا)
لندن 12 نوفمبر 1892

... أتدرك بأن لديكم في فرنسا سلاحاً مذهلاً وهو النظام الانتخابي؟ فقط لو كنتم تعرفون كيفية استعماله! إن هذا الطريق هو أكثر بطئاً ومملاً من النداء إلى الثورة، ولكنه أكثر ثبوتاً بعشرات المرات. الأفضل من ذلك كله هو: أنه يعمل كالمؤشر، وهو كلي الدقة، للوقت المناسب لنشوب أي ثورة. بلا شك بأن حكامكم سينقلبون على العمل العلني بين ليلة وضحاها حالما يتمكن العمال من استعمال النظام الانتخابي لصالحهم، وهذا سيبرر ثورتهم في العلن.

.3

إلى أوغست بِبل (في ألمانيا)
لندن 12 أكتوبر 1893
... في النمسا كل الأحزاب خائرة، والتشوش العام هو السائد، والأمم المختلفة في تناحر مستمر، والحكومة لا تعلم ما الذي تريده؛ مع كل هذه الظروف فأن وجود حزباً يعلم بالضبط ما الذي يريده، ويعلم كيفية الحصول على ما يريده، بصلابة وحزم حتماً سيثبت قوته في المستقبل، خصوصاً أن كل مطالبه تتماشى مع التطورات الاقتصادية لبلد مثل هذا، وهي كمطالب ليست أكثر من تعبيرات سياسية لهذا التطور. إن حزبنا في النمسا هو الحزب الفعال الوحيد من بين كل الأحزاب الأخرى هناك؛ غير ذلك لا توجد سوى مقاومات خاملة أو مغامرات هنا وهناك لا تؤدي إلى أي شيء في نهاية المطاف، ويضعنا ذلك في وضع استثنائي في النمسا. ... لا خوف على موت قضيتنا في النمسا؛ فأصحابنا هناك سيؤكدون عدم حدوث ذلك. إن البرلمان الإمبراطوري النمساوي أكثر جموداً من قرينه الألماني، أو حتى الساكسوني أو البافاري. ولكن وجود عدداً هائلاً من الممثلين الاشتراكيين سيترك أثراً هائلاً يتعدى الأثر المتروك عند البرلمان الألماني، ونحن بلا شك محظوظون بفيكتور [المقصود: فيكتور آدلر الذي يعلم، بمفاهيم واضحة، بكل خصوصيات وتعقيدات النمسا...

التقدمي

التقدمي العدد 155 ـ أكتوبر 2020 السنة الثامنة عشر SDPA 499

رئيس التحرير: د. حسن مدن ـ مدير التحرير : فاضل الحليبي ـ سكرتير التحرير: عيسى الدرازي

مقبلٌ موعد
المهرجان الذي
نكتبُ الآن تاريخه

■ الشهيد سعيد العويناتي

حوار
الريح والليل

عبد الحميد القائد

أغمسُ يَدِي في الريح
فربّما تُلامسُ يدي ريحها
تلك التي لم تأت بعد انتظارٍ
واحتراق تاريخ
وعَصف مَسَافات نَار
وَعدَتني في حُلم ليلةً
أنها سَتأتي طَالعَةً من قهوتي
أو من دُخان سَجائري
لكنها أخلفتْ وعدَها
غَادرتْ الى وُجهةٍ أُخرَى لا تَحملُ اسمي
على فَرس يَعدُو
نحو مَساءات لا أوجدُ فيها
شَممتُ عبقَ حنّائها
وعطرَ جَسَدِها الخَفي
يَتناثرُ على أصَابعي
لكن التي تَأتي لم تأت
فَولّيتُ وَجهي صَوبَ القَصيدة
فربَّما أجدُها في حَرفٍ
أو في قافيةٍ
أو في انهمارِ الوَحي على تَراتيلِ عَرّافٍ
أو في تَعويذاتٍ سَاحرةٍ
لكنني رأيتُ الظلمةَ تَضحكُ ملء عُتمتها

وهي تَرى وجهي يشعُّ منه ألقَ الجُنون
رأيتُ يدَ الليلِ تَدفَعني كي أنَام
قبل أن تنفجر القَصيدةُ في وَجهِي

المواد التي تحمل أسماء كتابها لا تعبر بالضرورة عن رأي المنبر التقدمي

ص. ب: 21461 ت: 17780007 Altaqadomi.bh@gmail.com